الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة سعيدة"الدكتور الطاهر مولاي"

كلية الآداب واللغات والفنون.

قسم اللغة والأدب العربي.

تخصص:نقد عربي قديم.

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدبها.

موسومة بـــــ:

الثابت والمتحول في معايير القصيدة الشعرية بين العصرين: الجاهلي،و صدر الإسلام.

من إعداد الطالبة:

عائشة بلفرح.

بإشراف الأستاذ:

د.الطاهر هاشمي

اللجنة المناقشة:

الدكتور.....رئيسا.

الدكتور.....ممتحنا.

الدكتور.....مشرفا ومقررا.

السنة الجامعية:1439-1438هـ/2017م-2018م.

الشـــــكر والتقـــــدير.

أولا: أشكر الله تعالى على توفيقه ومنه علينا بهذه النعم، نعمة الإسلام،ونعمة الهداية،ونعمة العقل،ونعمة الصحة.

"من لا يشكر الناس لا يشكر الله" أشكر الأستاذ الفاضل "د.هاشمي الطاهر"على مجهوداته المبذولة وعلى نصائحه، وتوجيهاته، وصبره، وتحمله أعباء هذه المذكرة.

كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الفاضل "د.مصباحي لحبيب" الذي أفادني بمراجع وجدت فيها ضالتي.

ثم أترك بصمة شكري إلى جميع أساتذة جامعة سعيدة.

إهـــــــــــــداء.

أفتح رسالة إهدائي إلى اللذين قال الله فيهما:﴿**وقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدَهُمَا أوْ كِلاَهُمَا فلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ولاَ تنهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾ سورة الإسراء:الآية23.

ثم أفتح رسالة إهدائي إلى مشعل العلم والمعرفة إلى الذي قهر العدو الفرنسي بتنوير العقول إلى من قال "شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب"إلى روح الشهيد العلامة عبد الحميد بن باديس.و إلى كل أسرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ثم أهدي ثمرة اجتهادي إلى من تدمع العين لفراقهن،ويحزن القلب ويتكسر ألما، ويتوق شوقا للقائهن، إلى اللواتي تقاسمت معهن مسيرة الدراسة الجامعية وهنّ:دحماني فاطمة،خلدوني فاطمة،عثمان مسعودة.

كما أهدي هذا العمل إلى جامعة سعيدة د.الطاهر مولاي وإلى الأساتذة الأفاضل "د.هاشمي الطاهر"،"د.حفيظة مخلوف".د.حاكم عمارية"."د.مرسلي عبد السلام"د.زحاف الجيلالي"د.بومدين الجيلالي"

كما أهديه لأخواتي:الزانة،فاطمة،...عامرة.وابن أختي الصغير خثير يحي.

كما أهديه إلى زميلاتي:طجين سعاد.نايلي حسيبة،أسد فاطمة،أسد أسماء،سعيداني راضية.

كما أهدي هذا العمل المتواضع إلى القضية الأم (فلسطين).

بلفرح عائشة.

مقدمة

القصيدة العربية مسار طويل، ومسافة بعيدة الأميال،وتاريخ بعيد الأثر،وتراث زاخر القيمة،وجمال فني ذابت فيه معاني الحياة،واكتملت فيه صورتها،وهي صوت معبر عن شعور الإنسان.

لقد شكلت القصيدة العربية في تاريخ الإنسان العربي قضية مهمة، باعتبارها عبّرت عن المقاصد والمكبوتات،فهي طاقة فجرت تلك الكوامن التي تختلج في عالميه الداخلي و الخارجي،والشاعر بدوره سريع الانفعال اتجاه العوامل التي تحيط به،وهو شديد التأثر بهذا الواقع الذي يجد فيه وجوه التباين من عصر لآخر،ومن بيئة لأخرى.

وموضوع هذا البحث هو دراسة نقدية تقييمية لطبيعة المعايير الفنية التي احتكم إليها القصيد الشعري العربي إبداعا ونقدا،في العصرين الجاهلي صدر الإسلام،للبحث عن وجوه التباين الحاصلة في مسار القصيدة العربية عبر مسيرة تحولاتها المختلفة التي تستجيب لها في كل مرحلة من مراحل نموّها وتطوّرها، ويعود هذا الأمر لطبيعة المجتمع العربي الذي شهد بفعل مجيء الإسلام ثورة كبرى في المفاهيم والمعتقدات.

وقد حاولنا في هذه الدراسة الكشف عن وجوه كثيرة للتباين الحاصل بين القصيد الجاهلي والقصيد المنتمي لفترة صدر الإسلام،حيث كان الشعر في هاتين المرحلتين يتمايز ويختلف في بعض الجزئيات التي تفرضها جملة من المعطيات الزمانية،والمكانية، وكذا طبيعة البيئة التي نشأت في ظلالها القصيدة العربية، وإذا كان للإسلام أثر كبير في بلورة الشعر العربي، وتخليصه من كثير من المضامين التي تجافي تعاليم الإسلام، فهل الشعر في صدر الإسلام محا تلك القيم الجاهلية، أم أنّ الإسلام لم يحرم الشعر جملة وتفصيلا، بل أشاد ببعض المضامين الجاهلية التي لا تعارض القيم الجديدة، وفي المقابل دعا إلى ضرورة جعل الشعر وسيلة،من وسائل الدعوة إلى الله؟وهل معايير الإبداع والنقد تغيّرت مع تحولات الحياة الفكرية والعقلية؟، ولعرض مادة هذا البحث اتبعنا المنهج الوصفي الذي استدعته طبيعة الموضوع القائمة على تحديد الفوارق بين الشعر

الجاهلي،وشعر صدر الإسلام على مستوى الموضوعات والأغراض والخصائص الفنية مع ما يقابلها من المعايير النقدية المتباينة بين العصرين.

هذا وقد أنجزنا هذه الدراسة من خلال مدخلٍ وثلاثة فصول نعرض تفاصيلها على النحو الآتي:

المدخل:وفيه حاولنا أن نقدم جملة من الإجابات عن بعض الأسئلة الجوهرية المتعلقة بطبيعة الإبداع الأدبي خلال هذين العصرين.باعتبار ما بينهما من التقاطعات والتباينات الفنية والموضوعية،التي فرضتها التحولات المختلفة و التي عرفتها هذه الفترة من عمر الإبداع العربي خلال هذين العصرين.

و النقطة الأخيرة رعيت فيها الجانب النقدي كمقياس للحكم على المعايير المتخذة في الأحكام النقدية، التي احتكم إليها الإنسان العربي في العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، فكانت هذه الأحكام في معظمها تخضع للأحكام الذوقية،الفطرية،ورغم ذلك وجدنا بعض التباين بينهما؛ ففي عصر صدر الإسلام كان الحكم النقدي ينطلق في الأساس من مبدأ الأخلاق كقيمة أساسية في الحكم على معيار الجودة وفي ضوء هذه المعطيات المقدمة بصورة ضمنية حول الشعر العربي، كان المدخل يعد نقطة البدء للوصول إلى دراسة الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام ،كمرحلتين مهمتين في تاريخ الأمة العربية.

الفصل الأول:وقد وضعناه تحت عنوان القصيد الجاهلي:موضوعاته، وأغراضه وخصائصه الفنية.

وتعرضنا تحته لثلاثة مباحث هي كالآتي:

1- المبحث الأول:موضوعات الشعر الجاهلي.

يتميز الشعر الجاهلي بمواضيعَ كثيرة تعكس في مجملها واقع الإنسان العربي، الذي كان يكابد بيئة قاسية، وظروف صعبة أحاطت به من كل طرف، فقد جسّدت الموضوعات المطروحة في هذا الشعر طبيعة

الظروف التي ألمت بالشاعر في هذا العصر،وعلى رأسها:موضوع الوصف،موضوع الفخر،موضوع الصعلكة،وموضوع القيم الغيبية والعقائدية.

2-المبحث الثاني: أغراض الشعر الجاهلي.

وفيه اقتصرت على بعض الأغراض البارزة في هذا العصر، وارتأيت فيها الوقوف على المضامين، أو الكيفية التي قدّم بها الغرض، وابتعدت في هذه الدراسة عن التعاريف اللغوية والاصطلاحية. كون هذه الدراسة تتوخى عرض الجوانب التي قدّم بها الغرض، وليس معرفة الغرض بحد ذاته؛ فالموقف هنا لا يستدعي التعريف بهذه الأغراض بقدر ما يحيط بالمعاني التي تقدم في هذه الأغراض.

3-المبحث الثالث: الخصائص الفنية

أولا درست مضامين الشعر الجاهلي من خلال ما توحي به دلالات الأغراض،والموضوعات،فكانت تعكس في مجملها طبيعة البيئة العربية، وطبيعة عقلية الإنسان العربي.

ثانيا:الخصائص الشكلية:ودرست في هذا العنصر الجوانب المتعلقة بالشكل الخارجي للقصيدة من دراسة الألفاظ،والإيقاع،والقافية ومدى قدرة هذه العناصر على تحقيق الانسجام مع متطلبات الشاعر.

الفصل الثاني:وضعته تحت عنوان:القصيد الشعري في صدر الإسلام:موضوعاته، وأغراضه وخصائص الفنية.وقسمته هو الآخر إلى ثلاثة مباحث هي كالآتي:

المبحث الأول:موضوعات الشعر في صدر الإسلام.

تصب موضوعات الشعر في صدر الإسلام، في معين واحد، وهو الدعوة إلى الله، ومناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن المسلمين، والدعوة إلى نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة، وفي هذا

البحث قد وضعت الفصل تحت عناوين ثانوية قسمتها إلى محاور هي شعر الدعوة،وشعر الغزوات،وشعر الفتوحات،وشعر النضال.

المبحث الثاني: أغراض الشعر في عصر صدر الإسلام.

عالجت بعض الأغراض المعروفة بكثرة في هذا العصر، وتلمست فيها روح المعاني الإسلامية ظاهرة للعيان، فلم يكن الشاعر في هذا الزمن بعيداً عن الحدث العظيم، الذي حلّ بهذه الأمة، وإنما الشاعر بات قريبا وملتصقا بالحياة الجديدة، فواكب الشاعر هذه الحياة، و بدأ يقرض من القرآن والسنة النبوية مادته في نظم الشعر، وبذلك وجدنا معظمها لم يبق بنفس النبرة الجاهلية فتبدل جوهره فأصبح المدح على سبيل المثال: مدحا للرسالة، ومدحا للرسول صلى الله عليه وسلم، والهجاء الذي كان في الجاهلية مبني على الذم. تحول إلى هجاء فيه كثير من التهذيب والتعديل،فأصبح هجاءً يذم الأخلاق الخُلُقِية لا الخَلْقِية.

المبحث الثالث:خصائص الشعر في صدر الإسلام.

خصائص المضمون:مدام الشعر في صدر الإسلام،هو المنافحة عن الإسلام وعن الرسول صلى الله عليه وسلم فمضامين الشعر في هذا الوقت جلها تصب في هذا الاتجاه ألا وهو الوقوف إلى جانب الدعوة والحث إلى إقامة شعائر الله والجهاد في سبيل الله ومقارعة المشركين.

أما خصائص الشكل: لم يخرج الشعر عن خصائص القصيدة القديمة، وإنما أضاف لها بعض الأساليب، التي استنبطها شعراء الإسلام من منابع القرآن الكريم، والسنة النبوية،وأدخلوا عليها ألفاظا جديدة من القرآن الكريم.

الفصل الثالث:تجليات الثابت والمتحول في معايير القصيد الشعري بين العصرين:الجاهلي وصدر الإسلام–قراءة في همزية حسان بن ثابت–

لقد حاولت من خلال هذه الدراسة الكشف عن التحولات، والثوابت في شعر "حسان بن ثابت" وانطلاقا من هذا تبين لنا أن هذه القصيدة سبكها الشاعر على الطريقة القديمة، من خلال الابتداء بالمقدمة الطللية، ووصف المرأة، وذكر الخمرة ورغم ذلك نجد الكثير من المعاني الإسلامية مسيطرة على روح هذه القصيدة،ونلاحظ في دراسة هذه الأخيرة أنها تحمل موضوع الشعر الإسلامي،كما تحمل في شقها الآخر موضوعات الجاهلية،وقد بيّنا الثوابت والمتغيرات في هذه القصيدة.

وللبحث قيمة علمية هامة في معرفة تراث أسلافنا،و هذا مما أضرم في نفسي نار البحث، في هذا الموروث الذي يمثل هويتنا، وأصالتنا.والدافع إلى دراسة هذا الموضوع هو وجود سببين رئيسيين:أحدهما ذاتي، والآخر موضوعي.**فالسبب الذاتي**:هو الميل لتراثنا العربي القديم،باعتباره يمثل مرجعنا الذي نغرف من بحره الفيّاض،وكذا طبيعة التخصص.وأما **السبب الموضوعي**:وهو ألا نكون مجرد آلة نقل لما تموج به علينا الدراسات الغربية، من مغالطات لمناهج حديثة تنوي من ورائها طمس هويتنا، وأصالتنا،وإنما يجب علينا أن نتمسك بهذا التراث ونحييه من داخله، لا من خارجه، وبذلك تكون لنا كلمتنا التي نشهر بها عن رأينا أمام ما تصدّره لنا الدراسات الغربية.

وآن الأوان أن نتحدث عن الصعوبات التي وقفت حاجزا أمام إنجاز هذا العمل المتواضع، ولعل من أهم العراقيل التي اعترضت طريقي نقص الخبرة في إعداد مثل هذه البحوث، وكذالك ضيق الوقت مع تشعب الموضوع، وبعض الانشغالات التي انشغلت بها طيلة هذا المشوار الدراسي.

أما فيما يخص المسهلات فهي: الحصول على العديد من المراجع، والمصادر، الإلكترونية والورقية فمن أهم المصادر التي كانت لي عونا،وسندا كتاب الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، لصاحبه"حنا الفاخوري"وكتاب أصول النقد العربي القديم،لمؤلفه"عصام قصبجي"

ومما لا ريب فيه، أنّ العمل الذي قدمته لم يكتمل بصورة نهائية، وإنّني لأعتقد، أنّ هذا البحث، لا يزال يعاني، وجع النقص،والقصور،ويبقى بحاجة ماسة، إلى المزيد من التدقيق والفحص، والدراسة وهو مفتوح أمام الأجيال الصاعدة، لسد ثغرات ما غفلت عنه.

وفي الأخير أشكر الله تعالى على توفيقه ومنه علينا بهذا الفضل العظيم، ثم أشكر الأستاذ: المشرف "د.هاشمي الطاهر"الذي أمدني بتوجيهات قيمة كانت سندا وعونا لي في إنجاح هذا العمل.

مدخل

اشتهرت العرب و تميزت عن سائر الأمم بنظم الشعر الذي حدد ملامحها على مر العصور،فلم يكن لهم علم أرفع منزلة وأعلى مكانة من الشعر.فإنه رفع من شأن قبائل وقلّل من شأن قبائل أخرى فوجدوا فيه مبتغاهم وما يصبون إليه،فهو الجامع الحافظ لثقافتهم وأفكارهم؛وهو فطرة فُطر عليها العرب منذ نشأتهم، فكان دستورهم الذي يسيرون على نواميسه،ويمشون على هديه وخطاه،فقد سنّ لهم قوانين الحياة ومنه استمدوا القوة والعزيمة،و به بلغوا الريادة والرفعة والسمو،وقد خلد للأمة العربية مآثرها وخصوصيتها،مما بجعلها متفردة عن غيرها من الشعوب والأمم الأخرى.

وقد نما الشعر في البيئة العربية وباللسان العربي الفصيح،و نقل واقعها المعيش فكان ملما بتفاصيل حياة العرب وشاهدا على تراثهم العريق، فكان أداةً لتصوير ذلك كله، وكان الشاعر لسان قبيلته وزعيمها في الحرب وقائدها في السلم.

والبحث في حقيقة الشعر العربي القديم هو الوقوف على مدلولاته ومضامينه،وكذلك هو البحث في المتغيرات التي طرأت على الشعر من عصر لآخر،فقد خضع لتغيرات تلائم العصر.فواحة الشعر في العصر الجاهلي مثلا تختلف في كثير من الجزئيات عن واحتها في العصور التي تلتها.و تفاعل الإنسان العربي مع الشعر من عصر إلى عصر تبعا لهذه المتغيرات المستجدة في كل عصر.

ولكن هناك مواقف قد تكون المحور الفعّال في تحريك فتيل الشعر،وإذكاء جذوته،و نتساءل هنا.

هل الشعر تعبير عن حالات نفسية واجتماعية وتاريخية وغيرها من مجالات الحياة التي عاشها الإنسان العربي عبر العصور؟.أم هو صورة واصفة لحقيقية واقع الإنسان العربي، أو هو تعبير عن مشاعر وأحاسيس الشاعر اتجاه ما يعانيه من ظروف قاسية؟.ثم ما أهم القضايا التي تناولها الشاعر في شعره؟.و هل الشعر في صدر الإسلام هو امتداد لطبيعة الشعر الجاهلي أم هو نمط آخر مغاير له في المضامين والأشكال؟.ثم من

أين استمد العرب موهبة الشعر؟.وكيف استلهموا معايير الموهبة الشعرية؟.ثم كيف استلهموا معايير تقييم الشعر؟.

وللإجابة عن هذه الأسئلة المتعلقة بمضامين الشعر ومدلولاته لابد لنا من الاستناد إلى ثلة من النقاد والأدباء الذين كان لهم صدى معرفي في إدراك حقيقة الشعر،ومن هنا نتحدث أولا:عن الشعر بوصفه ضربا من ضروب الخواطر وفي هذا الشأن يقول "مصطفى صادق الرافعي":«الشعر معنى لما تشعر به النفس فهو من خواطر القلب إذا فاض عليه الحس من نوره انعكس على الخيال فانطبعت فيه معاني الأشياء كما تنطبع الصور في المرآة.وهو من بعد كالحلم يخلق في المخيلة مما يصل إلى الأعين ويتأدى إلى الأذان ما لا يكون قد وصل و لا تأدى»[1].

الشعر هو المعبر عن الأحاسيس والمشاعر،وهو المرآة التي تعكس خواطر الإنسان فتخرجها من عالمها الداخلي إلى العالم الخارجي ،فهو إدراك حقيقي لما يختلج في النفس.

والشعر عند العرب لا يقف عند هذا الحد فحسب،بل اعتبره كثير من الأدباء والنقاد وثيقة أساسية أمينة في نقل أخبار العرب وعلومهم،وهو علم الأقوام كما ورد في الأثر عن "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" حينما قال:«الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه»[2]. إنّ مقولة "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" برهان قاطع على المكانة الرفيعة لمنزلة الشعر عند العرب.وهذا ممّا يدل على أنّ الإسلام لم يرفض الشعر،ولم يقف منه موقفا يدل على احتقاره أو استهجانه-بل على العكس من ذلك نجد الإسلام-في كثير من

[1] مصطفى صادق الرافعي،ديوان الرافعي،شرح محمد كامل الرافعي،ج02 ،جامعة الاسكندرية،1322 هـ،ص03.

[2]ابن رشيق القيرواني،العمدة في محاسن الشعر وآدابه،دط،دت،ص06.

النصوص المنقولة عن هذه الفترة يشجع النّاس على تعلّمه وحفظه لما فيه من اللغة ورسوم أساليبها وطرائق بيانها،ولما في بعض أغراضه ومعانيه من ترغيب في الفضائل وحث على نبذ الرذائل.

وكان للصحابة رضوان الله عليهم مقولات تحبب النّاس إلى تعلم الشعر،وقد نوّه و"علي بن أبي طالب رضي الله عنه"من الأهمية العظيمة في حفظه،وهذا ما تجسد بالفعل في مقولته الشهيرة الموجزة المختصرة التي مفادها أنّ:«الشعر ميزان القول،ورواه بعضهم:الشعر ميزان القوم»[1].إن مثل هذا الموقف الصادر من صحابي جليل يثبت فيه الدور الرّيادي والاتجاه الصحيح للشعر عند العرب فهذا دليل يقطع الشك من أن الإسلام لم يمقتِ الشعر.

الشعر هو علم العرب الذي عرفته، ولم يكن لها علم سواه، وكلمة ميزان تدل على الاتجاه الصحيح والسّوي لأن الميزان يمثل العدل والمساواة وبالتالي كان الشعر يمثل الجانب الصحيح ويحث على الفضائل، ومكارم العرب التي تحلت بها في أيامها النازحة.وهو الدعامة الأساسية أو هو ديوان العرب كما قيل عنه في مصنفات كثيرة وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته قائلا:«اعلم أن الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم،و كان رؤساء العرب متنافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله،حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني...»[2].

[1] المصدر السابق،ص06.

[2] عبد الرحمن بن خلدون،مقدمة ابن خلدون،تح أحمد جاد مراجعة أ.د.عبد الباري محمد الطاهر،دار الغد الجديد القاهرة-المنصورة،ط01، 2007م ،ص584.

إنَّ الشعر هو دستور العرب الذي رسم حياتهم،وخلّد مآثرهم،وكان شاهدا على حضارتهم،وثقافتهم وبطولاتهم وغيرها من مجالات حياتهم التي اعتادوا عليها في تاريخهم المجيد.

هذا و يرى ابن رشيق القيرواني أن العرب لما احتاجت إلى التفاخر بقيم عاداتها ومكارمها صنعت بذلك أعاريض وموازين حيث يقول:«وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها،وطيب أعراقها،وذكر أيامها الصالحة،وأوطانها النازحة؛وفرسانها الأمجاد،وسمحائها الأجواد،لتهز أنفسها إلى الكرم،وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام،فلما تم لهم وزنه سموه شعرا؛لأنهم شعروا به،أي:فطنوا له»[1].

وفي كلام "ابن رشيق القيرواني" ما يدل على أن كلام العرب كان كله منثورا، والعرب تميل إلى الغناء،والنثر لا يمكن أن يؤدي رسالة الغناء،فالأقرب إلى الغناء هو الشعر،ومن ذلك فكّرت العرب إلا أن تصنع ما يلبي رغباتها لتغني بأيامها الخالدة،وأوطانها النازحة فالشعر كان استجابة معنوية روحية احتاج إليها الإنسان العربي للترويح عن حاجة في نفسه، وهذا أمرٌ طبيعي لدى عامة الناس فالقلوب تميل إلى الغناء لكونه أكثر تأثيرا في النفوس والشعر نوع من الغناء.

ويمكن أن يطرح الشعر في سياقات مختلفة توحي بدلالات ومفاهيم نفسية واجتماعية وتاريخية وغيرها من السياقات التي يمكن للشعر أن يعبر عنها، وفي هذا الحقل نجد العديد من النقاد الذين رأوا بأن الشعر هو تعبير عن حالة نفسية،حيث يقول"إيليا الحاوي":«إن العقل يفتّش عن الحقائق العارية التي تحررت من الذاتية والانفعال وأصبحت ذات حدود واضحة،مطلقة؛أما الشعر فيلتقط بغريزته الغامضة العلاقات النفسية اللطيفة الحائرة،والواقع الوجداني الذي تكاد أن تنطفئ فيه حدقة المنطق لما يعروه،في أحيان كثيرة،من هذيان

[1] ابن رشيق القيرواني،العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص02.

وفوضى،هما أعمق تعبيرا عن حقيقة النفس من النظريات والحقائق المجردة.والشاعر يعبّر عما يعانيه،كنتيجة لبواعث نفسية غامضة،كثيرة التعقيد والتقمص...»[1].

إنّ االمتأمل في أفكار النص يجدها تفسر الكثير من الحالات النفسية التي تدفع الشاعر حتما للولوج إلى عالم الفن المرتبط باللاشعور،فالنص يعبر عن مظهر من مظاهر الحالات النفسية التي يعانيها الإنسان في لحظة ما.

ويثمن هذا الرأي موقف الشاعر الناقد "ت.س.إليوت" بقوله:«إنّ الشعر عبارة عن إعادة تجميع ومزج الانفعالات المضطربة عندما يكون الشاعر قد فرغ من الإحساس بها،وبدأ مرحلة الهدوء والاتزان التي تمنحه من حدة الوعي ما يمكنه من تنظيمها داخل شكل فني بحيث يطرد كل ما ليس له علاقة عضوية بقصيدته حتى لا يكون عالة على جسمها.فالفن لا يحتمل وجود الطفيليات والشوائب لأنه يصهر كل ماله علاقة حية وفعالة به.»[2].

الشعر حسب الناقد "اليوت"حالة نفسية قبلية؛أي أن الشاعر يعيش لحظات انفعالية في لحظة ما ولما تعود نفسه إلى حالتها الطبيعية تنساب إليه الكلمات بنبرتها الرقراقة، وحينها يجد نفسه أمام حالات نفسية تدفعه حتما إلى إطلاق عنان التعبير عن لحظات طواها الهدوء.

إذن:تتعدد مضامين الشعر بتعدد الحالات التي يعيشها الشاعر في كنف الحياة، ولعل الحالة النفسية هي واحدة من الحالات التي تشعل نار الشعر،فما تكابده النفس من صراعات داخلية يحول في مجمله إلى العالم الخارجي؛فالعالم الداخلي للإنسان يترجمه الشعراء في واحات شعرية غامضة الدلالة.

[1] إيليا الحاوي،نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، ،دار الكتاب اللبناني بيروت، ط03 ،1969،ص14.

[2] د.نبيل راغب،النقد الفني،مكتبة مصر-دار مصر للطباعة سعيد جودة،دط،دت،ص19.

ومن أجل تفسير الحالات النفسية التي تفجر قلم الشاعر للتعبير عن معانات نفسية في ظروف معينة، نذهب للحديث عن الأسباب الدافعة لقول الشعر ونذكر في هذا ما يذكره"مصطفى صادق الرافعي"في الكشف عن دوافع الشعر وأسبابه حيث يقول:«أول الشعر اجتماع أسبابه.وإنما يرجع في ذلك إلى طبع صقلته الحكمة وفكر جلا صفحته البيان.فما الشعر إلا لسان القلب إذا خاطب القلب.وسفير النفس إذا ناجت النفس.ولا خير في لسان غير مبين،ولا في سفير غير حكيم.ولو كان طير يتغرد لكان الطبع لسانه،والرأس عشه والقلب روضته...»[1].إذا كان الشعر هو ذلك التعبير الرائع بمعانيه وألفاظه وأساليبه،لا ريب في أن بذوره الأولى قد أُتيحت لها أسباب متعددة صنفها المؤلف في هذا النص وهي:طبع صقلته الحكمة،وفكر أظهره البيان.

وقد بحثنا عن بعض المضامين،والمدلولات،والأسباب،والحالات التي يعبر عنها الشعر بصفة عامة وذلك من خلال محاولة الكشف عن بعض النصوص الأدبية والنقدية،دون الوقوف عند عصورها المعروفة وتعتبر هذه النصوص أقوى برهان للتعريف بهذه لأعراف،والتقاليد، المستوحاة من الشعر العربي القديم، وبالتحديد الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام،وكانت هذه المعرفة إحاطة ضمنية،فهمنا من مضمونها الصورة العامة التي تميز بها المجتمع الجاهلي والمجتمع الإسلامي،وهذه الأعراف والتّقاليد أيضا نقلت ووضحت لنا في طياتها الكثير من القيم السائدة عبر هذين العصرين(العصر الجاهلي-وعصر صدر الإسلام).

وللشّعر في العصر الجاهلي مكانة رفيعة وعالية عند القبائل، بحيث حظي الشاعر بهذه المكانة، وهذا ما وضحه الباحث واضح الصمد بقوله:«كان الشعر في الجاهلية يرفع الوضعاء ويخفض ذوي الرفعة،وهذا يدل على الدور الخطير الذي كان يلعبه الشعر عند أولئك القوم،وكانت القبائل تحفظ أشعار

[1] مصطفى صادق الرافعي،ديوان الرافعي،شرح محمد كامل الرافعي،ج01،مطبعة الإسكندرية، 1321 هـ،ص03.

شعرائها،ويرويها أبناؤها إلى الأحفاد والأجيال التالية،والعرب أمة أمّية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين، والشعر أسهل في الحافظة وأعلق في الذهن، لذلك كانوا يخافون لسان الشاعر ويتحامون هجاءه،وقد بلغ من خوفهم من الهجاء خشية أن يبقى ذكره في الأعقاب،ويُسب به الأحياء والأموات»[1].

مكانة الشاعر في العصر الجاهلي فقد رفع الشعر منزلته، بحيث جعل القبائل تعلي من شأنه حتى صارت تتنافس في حفظ أشعار شعرائها وترويه للأجيال القادمة،فكان الشاعر يمثل لسان الأمة،و هو المدافع عنها.

وبعيدا عن مكانة الشاعر وسط قبيلته وقومه نذهب للحديث عن دور البيئة في هذا العصر ومدى علاقتها بصياغة الشعر،ففي قراءتنا للشعر الجاهلي يتضح لنا جليا بأن هذه البيئة تعد المصدر الأساسي والقلب النابض الدال على نظمه وقوله، فالبيئة والزمان عاملان ضروريان في توليد قريحة الشعر،فالإنتاج الشعري يرتبط بالمواقف التي تشكل مادته، فالشعر في هذا العصر خرج من رحم الظروف القاسية، التي تتميز بها البيئة العربية،والشاعر بدوره له علاقة حميمية بها،ولذلك نجد الشعراء في العصر الجاهلي يقفون على الديار في كل أشعارهم، فالمقدمة الطللية هي فاتحة قصائدهم.حيث يقول ابن قتيبة في هذا الشأن:«قال أبو محمد:وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار،فبكى وشكا،وخاطب الرّبع،واستوقف الرفيق،ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازله المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء،وانتجاعهم الكلأ،وتتبّعهم مساقط الغيث»[2].

[1] د.واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت لبنان،ط01، 1414 هـ/1994م،ص70.

[2] ابن قتيبة،الشعر والشعراء،تح أحمد محمد شاكر،ج01،دار المعارف-القاهرة،دط،دت،ص74.

إنَّ الشاعر حينما يقتحم عالم الشعر لا بد له من استهلال حديثه بذكر الديار وبالتالي الوقوف عليها بعد زمن من الفراق شكل مادة شعرية للشعراء،وكذا البحث عن مساقط الغيث والماء والكلأ،و كل هذه الأسباب شقت طريق الشعر للإنسان العربي.

ومن الظروف التي يعيشها الإنسان في حياته اليومية تتشكل المادة الشعرية وقد ذكر ذلك ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء وهو كلام يتصل بما سبق ذكره حيث يقول:«ثم وصل ذلك بالنّسيب،فشكا شدة الوجد وألم الفراق،وفرط الصبابة والشوق،ليميل نحوه القلوب،ويصرف إليه الوجوه،وليستدعي به إصغاء الأسماء إليه،لأن التشبيب قريب من النفوس،لائط بالقلوب،لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل،وإلف النساء،فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب،وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام-فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه،والاستماع له،عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره،وشكا النصب والسّهر،وسُرى الليل وحرّ الهجير،وإنضاء الراحلة والبعير،فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء،وذمامة التأميل،وقرّر عنده ماله من المكاره في المسير،بدأ في المديح،فبعثه على المكافأة،وهزّه للسماح،وفضله على الأشباه،وصغّر في قدره الجزيل»[1].

يحيلنا هذا النص إلى معان كثيرة يتوقف عندها الشاعر،وهذه الأخيرة تولِّد الحزن والأسى جراء ذلك الفراق،والشاعر بدوره يصنع من تلك الذكريات الأليمة عبارات الإصغاء،وفيه نجد إشارة إلى نوع من التغزل (النسيب)،يصنعه الشاعر وهو يدرك جيدا بأن هذا النوع له قدرة على التأثير في النفوس.وبالتالي كل هذه المعاني هي مصدر إلهام الشعراء.

[1] المصدر نفسه،ص75.

وفي هذا السياق يكشف "القاضي الجرجاني" في"الوساطة"عن أهمية البيئة في تحريك قرائح الشعر،طالما أن العربي يتأثر بهذه البيئة المحيطة به وهو بذلك يعكس هذا الطبع في هذه القوالب فالشعر روحه البيئة والطبع مادته حيث يقول تحت باب:(اختلاف الشعر باختلاف الطبائع)«وقد كان القوم يختلفون في ذلك،وتتباين فيه أحوالهم،فيرق شعر أحدهم،ويصلب شعر الآخر،ويسهل لفظ أحدهم،ويتوعر منطق غيره؛وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع،وتركيب الخلق؛فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع،ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك،وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ،معقد الكلام،وعر الخطاب؛حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته،وحي جرسه ولهجته.ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك؛...ولذلك تجد شعر عدي-وهو جاهلي-أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان؛لملازمة عدي الحاضرة وإيطانه الريف،وبعده عن جلافة البدو...»[1].

لغة الشاعر وأسلوبه هي تبع لطبيعة البيئة والطبع فكلماته تلين في المناخ البيئي السلس،بينما تخشن في الوسط البيئي البدوي الذي يألف قاطنوه الخشونة في كل شيء.

وبذلك فطبيعة الشعر في العصر الجاهلي تعود في مجملها لخصوصية العصر والبيئة معا،بينما سمة الشعر في صدر الإسلام انفلقت من قيم مثلى تجسدت في صور مغايرة لما كانت عليه في العصر السابق حيث عبّر عن هذا المعنى الباحث عصام قصبجي قائلا:«ومضى الشعر الجاهلي على سنته الأولى،وجاء عمر رضي الله عنه فأفرغ جهده في إبراز المبدأ الخلقي في الشعر،وإن كان قد اقتدى بالرسول الكريم في الحض على الصدق أيضا عندما أثنى على زهير بأنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه،إذ روي عن "عمر"أنه قال:أنشدوني لأشعر

[1] القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني،الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح،محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي،المكتبة العصرية صيدا-بيروت،ط01 ، 1427 هـ،2006م،ص:24-25.

شعرائكم،قيل:ومن هو؟قال:زهير قيل:وبم صار ذلك؟قال:كان لا يعاظل بين القول،ولا يتبع حوشي الكلام،ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه»[1].

مزايا الشعر في صدر الإسلام وأولها قيامه على مبدأ الأخلاق، والمتمثل في الصدق وهذا ما يتلاءم مع طبيعة الدين الجديد،وأما فيما يخص الجانب الجمالي للغة الشعر فقد دعا إلى اختيار الكلمات السلسة البعيدة عن الغرابة والخشونة.

والشعر في مرحلتيه(الجاهلي وصدر الإسلام)،بلغ مبلغا من النضج والقوة والسبك وسلك اتجاهات معينة حسب معطيات كل عصر؛ففي الجاهلي تميز بقيم وعادات كانت من نتاج العصر.وأما في صدر الإسلام فقد نبع من ظل التحولات التي أحدثها الإسلام،ولكن لا ننكر بأن خيوط التقارب ظلت حاضرة بينهما.وأما الحديث عن معايير الإبداع،فالإبداع قضية جوهرية في العمل الأدبي بصفة عامة،وفي الشعر بصفة خاصة،والحكم عليه مرهون بما يوافق وينسجم مع طبيعة الظروف المحيطة بالعصر أولا ثم بالأعراف والتقاليد المعتادة في نمط القصيدة الشعرية،والناظم عليه أن يكون صاحب بصيرة بالثوابت التي تتلاءم وطبيعة خصائص كل عصر، وفي هذا المضمون يقول الناشر في مقدمة كتاب عيار الشعر:«لا بد لكل من يحاول النظم من مران ومراس،وهذان لا يكونان إلا بإطلاعه الوافي على شعر القدامى وعلى أخبارهم ورواياتهم وآدابهم وتملُّك لغتهم والوقوف على كل ما قالته العرب في هذا الموضوع حتى ينسج أشعاره على غرار ما نسجوه،ويبتعد في ذوقه عمّا نفرت منه أذواقهم وبذلك يجنب نفسه المعايب والهنات التي يمكن أن يقع فيها

[1] عصام قصبجي،أصول النقد العربي القديم،منشورات جامعة حلب،دط،1411هـ/1991م.ص16.

ويحاسب عليها،ولا بدَّ له أيضا من أن يصهر في معمله الذاتي كل قراءاته،وأن يستفيد من تجارب الآخرين»[1].

إنّ الإبداع كقضية فنية ترتكز على جملة من المعطيات التي ترقى به قليلا إلى منزلة معتبرة من التفوق والجمال،ويشترط فيه وجود عناصر مهمة وهي:موافقة الذوق العام،و الاستفادة من الموروث السابق،وامتلاك ناصية لغوية،والأخذ من تجارب الآخر...

و هو ما نجده عند ابن سلّام الجمحي حينما أرجع عملية الإبداع في الشعر إلى عمليتي الصناعة والثّقافة بقوله:«وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم،كسائر أصناف العلم والصناعات:منها ما تثقفه العين،ومنها ما تثقفه الأذن،ومنها ما تثقفه اليد،ومنها ما يثقفه اللسان.من ذلك اللؤلؤ والياقوت،لا تعرفه بصفة ولا وزن،دون المعاينة ممن يبصره»[2].

إنّ عملية الإبداع في منظور "ابن سلام الجمحي"تدرك بالعلم والثقافة كسائر الأشياء، وتعرف بالحواس الخمس.

والمقصود من طرح ابن سلام هو «أنّ صناعة الشعر إنما تكون في قدرة الشاعر على نظم قصائده على درجة من الحسن والإبداع،وبإتباعه الأصول المتفق عليها في هذا المضمار الشعري بما لديه من ذوق فائق،وثقافة عالية وتمكن في الأداء وعلى المستوى نفسه يعني بهذا الناقد أيضا،ذلك الخبير في الصناعة،المحيط علما بما لديه من مهارة وثقافة ودربة وذوق بوقائعها»[3].

---

[1] محمد أحمد بن طباطبا العلوي،عيار الشعر،شرح وتح،عباس عبد الستار،مراجعة،نعيم زرزور،منشورات، محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،ط02،1426هـ/2005م،ص03.

[2] ابن سلام الجمحي،طبقات فحول الشعراء،دط،دت،ص02.

[3] دنجوى محمود حسين صابر،النقد الأدبي حتى نهاية القرن الثالث الهجري،دار المعرفة الجامعية-الإسكندرية،القاهرة،دط،2000م،ص55.

الإبداع يتطلب شروطا تتوافق مع الأعراف، والتقاليد السائد في عصر المبدع، وبيئته الثقافية، و أهمها إتباع الأصول المتفق عليها من طرف الجميع.

ومن جهة أخرى يخلص "حسني عبد الجليل" في كتابه "الأدب الجاهلي قضايا، وفنون، ونصوص" بأنّ القيم الفنية الجمالية في الشعر تنطلق من عدة قضايا مهمة بقوله:«إنّ القيم الفنية في الشعر الجاهلي هي الإطار الذي تتشكل من خلاله القيم والقضايا والمواقف الإنسانية،والشاعر المجيد هو الذي يقدم شعرا لاانفصال فيه بين الشعر والحياة،وبين ما هو عام وما هو خاص،وبين التشكيل الفني والمحتوى الشعري،وبين الفن والقيم الحضارية لعصره»[1].

فالقيم الجمالية التي تُقيَّم بها الأعمال الأدبية عامة والشعرية الإبداعية خاصة في العصر الجاهلي يحصرها الباحث في نقاط لها صلة وعلاقة متينة بالمواقف الإنسانية،وهذا ما يعزز فكرة "الأديب ابن بيئته"والباحث في هذا النص يلصق الشعر بالحياة أي؛ أن الشعر هو شريحة الحياة لانفصال بينهما؛ فالشاعر المبدع ملزم بقضايا مجتمعه،وهو يجمع بين الفن كقيمة جمالية،وبين القيم الحضارية الحالية التي تتوافق وتنسجم مع متطلبات عصره.

"والقاضي الجرجاني"يربط الإبداع الشعري بالطبع والدربة قائلا بذلك:«أنا أقول-أيّدك الله-إنّ الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء،ثم تكون الدربة مادة له،وقوة لكل واحد من أسبابه؛فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز؛وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان»[2].

[1] أ.د.حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي قضايا،وفنون،ونصوص،مؤسسة المختار ،القاهرة،ط01، 1421 هـ/2001م،ص:11-12.

[2] القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني،الوساطة بين المتنبي وخصومه،ص23.

بقدر دراية الشّاعر ومعرفته الشاملة بالطبع والرواية وفطنته تكمن جودته،ولعل المقصود بالطبع ما تعارف عليه المجتمع في زمن معين. و الرواية هي كثرة ما يحفظه الشاعر؛ بمعنى أن يكون له رصيد معرفي حتى يرتقي به إلى مرتبة الإحسان والإبداع.

فالحكم على سلامة الإبداع في العمل الأدبي بصفة عامة، والشّعر بصفة خاصة،يقتضي من النقاد أن يكونوا على دراية تنسجم بطبيعة مقاييس العرف العام،وفي هذا المفهوم يقول إحسان عبّاس:«إنّ الخضوع للعرف العام في الخلق الفردي والاجتماعي وفي محاسن الأشياء وعيوبها هو الحكم الذي كان يفيء إليه أولئك النقاد العلماء في دراستهم للشعر.وكانوا ما يزالون يتساءلون عن أمدح بيت وأغزل بيت وأهجى بيت،ولم يكن هذا السؤال-على سذاجته-وليد اعتقاد بأن البيت هو الوحدة الشعرية،وإنّما كان وليد البيئة التي تعتمد على الحفظ وعلى الاستشهاد والتمثل بالأبيات المفردة السائرة»[1].

إنّ كسر القيود الأساسية في القصيدة الشعرية يعد خروجا عن مألوف العرف العام، الذي كان يسير وفقه البيت،وهو كوحدة مستقلة بذاتها،تشكل مادة للإبداع، والتنصل من هذا العرف العام هو الخروج عن ساحة الإبداع العامة، فالحكم على الإبداع يقتضي إتباع تلك المعايير الأساسية التي ورثناها عن أسلافنا، و"إحسان عباس" في هذا النص يربط سلامة الإبداع بما يتوافق مع خصوصية العصر وطبيعة البيئة.

وأما معايير تقييم التجربة الشعرية في العصرين: العصر الجاهلي،وعصر صدر الإسلام،فيوضحه الناقد عصام قصبجي في كتابه الموسوم بـ:أصول النقد العربي القديم حيث يقول:«فالنقد في بذوره الأولى التي هي التأثر بالشعر إعجابا أو إعراضا وجد منذ وجد الشعر ضرورة،لأن الثناء على القصيدة إنما يعني الإحساس

[1] د.إحسان عباس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب،(نقد الشعر)من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري،دار الثقافة بيروت لبنان،ط01، 1391هـ/1971م، ص46.

بها من خلال تقويم معين،على أن المشكلة في الجاهلية أن هذا الإحساس كان غائما خفيا لم يبلغ أن يتحول مبدأ عقليا،لأن الإحساس مرحلة تتقدم التعليل،ولكنها لا تغني عن التعليل،والنقد أمران في النهاية- إذا أردنا ألا نخوض في مسائله: إحساس وتعليل،أو ذوق وعقل،والنقد الجاهلي كان معروفا في أطواره الأولى في الجاهلية على نحو يلائم الحياة البدوية،أما التعليل فكان يرد أحيانا على استحياء،وهكذا نستطيع أن نخلص إلى أن النقد الجاهلي كان غنائيا مثلما كان الشعر الجاهلي غنائيا»[1]. إن نقد الشعر في العصر الجاهلي لم يكن مبنيا على قواعد وأصول تضبطه،وإنما اهتدى في مجمله إلى مبدأ الإحساس كمعيار توزن به القصائد،ولم يكن ثمة نقد قائم على التعليل.

ومن الأمثلة الكثيرة التي توضح نمط هذا النقد القائم على الذوق والانطباع والتأثر هو ما أشار إليه "شوقي ضيف"بقوله:«ومن ذلك الأسطورة التي تزعم أن امرأ القيس وعلقمة بن عبدة تنازعا في الشعر أيهما أشعر،واحتكما إلى أم جندب...فقالت:لينظم كل منكما قصيدة يصف فرسه فيها،...فصنع كل منهما قصيدة بائية من وزن الطويل،وأنشداها القصيدتين،فقالت لزوجها:علقمة أشعر منك،قال كيف؟قالت لأنك قلت:

فللسوط ألهوبٌ وللساقِ درّة وللزجر منه وقع أخرج مهذب.

وقال علقمة:

فأدركهن ثانيا من عناقه يمر كمر الرائح المتحلّب.

[1] عصام قصبجي،أصول النقد العربي القديم،ص06.

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه،لم يضربه بسوط ولم يتعبه»[1]. من خلال الأحكام النقدية التي وجهتها "أم جندب" إلى أنّ "علقمة"قد أحسن وصف الفرس، بينما"امرئ القيس" لم يحسن الوصف،يبدو لنا جليا أن هذه الأحكام النقدية هي: أحكام انطباعية تأثرية خالية من التعليل، جاءت مناسبة لطبيعة العادات والتقاليد التي عهدها الإنسان العربي في الحكم على مسألة الجودة والرداءة.

والأمثلة في هذا الشأن كثيرة تناقلتها الكتب القديمة مبينة أثار هذا النقد القائم في صوره على الملاحظات الذوقية وفي غضون هذا الحديث.يُروى أن النابغة الذبياني كان يلتقي مع الشعراء في سوق عكاظ ويعرضون عليه أشعارهم،وذات مرة أنشده الأعشى،ثم حسان بن ثابت،ثم شعراء آخرون،ثم جاءت الخنساء فأنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر قائلة:

وإنّ صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار.

فنالت القصيدة إعجاب النابغة الذبياني وقال لها قولته المشهورة: لولا أن أبا بصير أنشدني لقلت:إنك أشعر الجن والإنس[2].نلاحظ من المقارنة التي أجراها النابغة الذبياني بين الأعشى والخنساء وأصدر فيها حكما ينوه فيه بالإشادة بمنطق الذوق والتأثر لا منطق التعليل.ومنه يمكننا القول بأنّ النقد الذوقي لازمة من لوازم العصر الجاهلي فجل النصوص تبرهن على صحة ذلك،فالصورة العامة للنقد في ذلك الزمن هي:الانطباع والتأثر.

[1] د.شوقي ضيف،فنون الأدب العربي(الفن التعليمي)النقد،دار المعارف،ط05،ص25.

[2] ينظر:أ.طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع هجري،المكتبة الفيصلية،مكة المكرمة،1425ه/2004م،ص:21-22.

وأما"مصطفى عبد الرحمن إبراهيم"في كتابه النقد الأدبي القديم عند العرب"يرجع معايير النقد في العصر الجاهلي إلى خمسة عناصر هي:الذوق الفطري،الارتجال في الأحكام،الجزئية،العموم،الإيجاز.وفسّر كل عنصر من هذه العناصر.

أولا الذوق:كان قائما على ما تلهمهم به طبائعهم الأدبية،ومعرفتهم الدقيقة بكيان لغتهم وبأسرارها التي تتوقف عليها الألفاظ من دلالات وإيحاءات.

ثانيا الارتجال:وهذه الخاصية ترتبط ارتباطا مباشرا بالذوق الفطري وفيه يعلن الناقد ويصدر حكمه مباشرة أو يمكن أن يبقى زمنا للتّدقيق والتمحيص لدراسة نواحي الجودة والرداءة،ولكن الارتجالية كانت أكثر شيوعا.

ثالثا الجزئية:في هذه المرحلة يهتم الناقد بدراسة جانب من الجوانب الفنية للقصيدة الشعرية مثل جانب الألفاظ أو المعاني.

رابعا العموم:وفي هذا العنصر يرسل الناقد أحكامه دون ذكر الأسباب.

خامسا الإيجاز:ويقصد بالإيجاز إرسال العبارات الموجزة التي نفهم منها ما يراد دون اللجوء إلى الشرح أو التّفصيل[1].كل هذه العناصر التي اعتبرها المؤلف نقاط تقيّم العمل الأدبي فهي تنبع من مَعين واحد هو الذوق الفطري ما عدا الجزئية التي يحاول الناقد فيها التنصل من هذا الحكم ولكن على العموم أن الحكم النقدي في العصر الجاهلي كان يغلب عليه الطابع الذوقي التأثري.

إذا كان معيار النقد في العصر الجاهلي قائم على الصورة الغنائية والإحساس المباشر فهل معيار النقد في عصر صدر الإسلام ظل رهينا لهذه الغنائية أم تخطاها إلى معايير جديدة تلائم طبيعة الحياة العقلية

[1] ينظر:د.مصطفى عبد الرحمن إبراهيم،في النقد الأدبي القديم عند العرب،كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين،مصر-القاهرة،مكة للطباعة،دط،1419هـ/1998م،ص:51-54.

الجديدة؟ وتحت سقف هذا التساؤل الذي يدفعنا للبحث عن كيفية بناء النقد في صدر الإسلام،وفي هذا المضمار نحاول تقصي بعض الآراء والمواقف النقدية التي تكون مطية للإجابة حيث يشرح هذه النقطة عصام قصبجي قائلا:«إن طبائع الأمور تقتضي أن يؤثر الإسلام في النقد مثلما أثر في شتى العلوم الأخرى...بيد أن شيئا من ذلك لم يحصل لأن قوة الشعر الغنائي تأبت على كل تغيير،كأن التمسك بهذه الغنائية كان تمسكا بالذوق البدوي»[1]. ورغم التغيرات والتحولات التي مست جميع ميادين الحياة، فقد استُثْنِيَ النقد من هذا التحول الجديد. ومنه بقي النقد في عصر صدر الإسلام محافظا على كيان القصيدة العربية، ولم يخرج عن طابعها الغنائي، بل راح يبرهن على صحتها، وفي هذا الشأن يبرر الباحث عصام قصبجي حكمه السابق بقوله:«لأن الذوق الجماعي المتجلي في الشعر يعسر تغييره وانتقاله بسهولة من طور إلى طور...إن النقد راح يفسر هذه الغنائية ويثبتها،ويعللها،ويحرم الخروج عليها،عوضا من أن يدرسها على أنها ظاهرة من ظواهر الشعر،ولكنها ليست من الشعر»[2].

ولكن "مصطفى عبد الرحمن إبراهيم"ينظر إلى النقد في صدر الإسلام بطريقة مغايرة تختلف قليلا عن نظرة الباحث "عصام قصبجي" وهو في حكمه يستند إلى أقوال "الرسول صلى الله عليه وسلم" وأحكام الصحابة رضوان الله عليهم حيث يقول:«إنّ محمدا(صلى الله عليه وسلم) نبي رسول،بعث مصلحا ومعلما وهاديا ودالا على طريق الخير،أرسل ليتمم مكارم الأخلاق،ويرسخ القيم الفاضلة الخيرة،وليحارب مفاهيم الجاهلية ومثلها المنحرفة الفاسدة»[3].

[1] عصام قصبجي،أصول النقد العربي القديم،ص13.

[2] المرجع نفسه،ص13.

[3] د.مصطفى عبد الرحمن إبراهيم،في النقد الأدبي القديم عند العرب،ص68.

إن النقد في المنظور الإسلامي وحسب ما طرح الباحث "مصطفى عبد الرحمن إبراهيم"هو كل ما يتوافق مع التعاليم الدين الإسلامي والحكم النقدي بهذا المفهوم هو مراعاة القيم النبيلة والحث على الفضيلة ومحاربة الرذيلة التي تتعارض مع تعاليم الإسلام و للإسلام أفق رفيع قامت عليها الحياة.

ويذكر "الباحث نفسه"المواقف النقدية للخلفاء الراشدين ومنها ما ينسب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه للشاعر لبيد حيث ورد في الأثر أنّ:«أبا بكر الصديق (أثر عنه)بعض النظرات النقدية منها ما يتصل بنقد المعنى وتوجيهه إلى النظرة الإسلامية.من ذلك ما يروى أن لبيد الشاعر المخضرم قام على أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل.

فقال أبو بكر:صدقت.فلما قال:وكل نعيم لا محالة زائل. قال كذبت،عند الله نعيم لا يزول»[1].فالحكم النقدي الذي اهتدى إليه أبو بكر الصديق هو توجيه المعاني وفق النظرة الإسلامية، وهو خروج عن طبيعته الساذجة التي سار عليها في العصر الجاهلي،وحتى صدر الإسلام حسب ما طرحه الباحث "عصام قصبجي"، ولكن الباحث "مصطفى عبد الرحمن إبراهيم"في هذا النص يحيلنا إلى معان أخرى واكبت الحياة النقدية الجديدة وهذا أنسب وأطوع لها،فهو يخطو بالنقد خطوة تتلاءم مع طبيعة الدين الجديد،وهو مناط البحث في هذه الدراسة.

ومنه فإنَّ معيار النقد في صدر الإسلام بقي على الصورة الغنائية التي اتسم بها النقد في العصر الجاهلي،هذا وإن كانت بعض التغيرات الطفيفة في ملامح النقد قد تغيرت،وهذا يعود لطبيعة الثابت

[1]المرجع السابق،ص88.

والمتحول في نمط القصيدة الشعرية أو في نمط العصر ذاته،وهو ما سنحاول الكشف عن تفاصيله في ثنايا هذا البحث.

الفصل الأول

توطئة:

إنَّ الحديث عن العصر الجاهلي،هو الحديث بالدرجة الأولى عن الشعر العربي القديم،الذي يأتي في مقدمة أي جنس من أجناس الأدب الأخرى،وما يلاحظ عن هذه الفترة أن ظروف الحياة فيها كانت أكثر تعقيدا بالمقارنة مع العصور التي تلتها.وفي ظل هذا الواقع المتشعب لمع كوكبة من الشعراء أمثال:امرئ القيس–عنترة بن شداد– وطرفة بن عبد وغيرهم،أدّوا رسالة الشعر الماثلة في نقل الواقع بما حمله العصر من سمات،وخصائص معبرة عن قيم وعادات المجتمع العربي في ذلك العصر،وهذه الخصائص والسمات ظلت شاهدة مع مرور الزمن على تراث عريق صنعه الإنسان العربي في فترة محدودة الزمن،وهذه الأخيرة رسمت لنا الخطوط الواضحة،في معرفة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، وفي طيات هذه الخصائص تسنى للدارسين والباحثين الوصول إلى معرفة ما خلفه الإنسان العربي،من إنجازات فكرية تدل على ما اهتم به الشاعر من مواضيع،وأغراض صنعها بنفسه في ظل تجاربه الخاصة،مع هذه البيئة،ومع العوامل والظروف التي تحيط به من كل طرفٍ،وهذه المعطيات هي الدليل القاطع في إثبات حقيقة الشعر الجاهلي من غيره.

يعد العصر الجاهلي مرحلة مهمة في نشوء القصيدة الشعرية العمودية،حيث كان جيل هذا العصر ملهما بقول الشعر ولذلك مثلوه أحسن تمثيل، فكان الشعر عندهم هو الحياة، فامتلأت صدورهم بحفظ الشعر واستقامت ألسنتهم على قوله،فقد لقي رواجا واسعا في هذه البيئة التي احتضنته،وبينت أصوله،ولولا هذه الخصائص لما استطاع الدارسون والباحثون التمييز بين شعر وآخر أو بين شاعر وآخر حيث تمثل الخصائص،والأغراض،والموضوعات دوراً مهماً في معرفة سمات كل عصر،لذلك فقد ساهمت القصيدة بشكل كبير في توضيح الحقائق التاريخية والاجتماعية والسياسية.

وموضوعات الشعر الجاهلي دارت في فلك وصف المرأة، ووصف الطبيعة، بنوعيها الحية والجامدة، والفخر بالقبيلة والفروسية، وغير ذلك مما تمجّده القبيلة، وما يكون في صالحها،وما تهدف إلى تحقيقه.

والأغراض شملت الوصف، والمديح،والهجاء والفخر، وكانت تهدف إلى توصيل رسائل تحقق من خلالها مبتغى الشاعر، الذي بدوره يطمح لتحقيق هذه المآرب،وإن كان الوصول إلى تحقيقها مستحيل، فما عليه إلا أن يعبر عنها بواسطة هذه الأغراض التي تمثل جزءاً من رغباته.

المبحث الأول:موضوعات الشعر الجاهلي.

أولا: موضوع الوصف.

حفل الشعر الجاهلي بمواضيع شتى، بيّنت في عمقها واقع الإنسان العربي، وكيفية تعامله مع الأشياء،ولعل هذه الموضوعات جاءت استجابة لمتطلبات الإنسان العربي الذي تلف حياته الهموم، والمشاكل،فهذه المواضيع تصور تلك المظاهر التي عانى منها الإنسان العربي، طيلة سنوات وسنوات،وتدل على معتقداته الفطرية، والدينية وهي متعددة منها ما يصف الحياة، ومنها ما يعبر عن حاجاته كالفقر والحرمان وقساوة الطبيعة، ومنها ما يصف الحروب، ومنها ما يفتخر بالقبيلة ويمجدها،وغير ذلك من المواضيع.

إنَّ موضوع الوصف في الشعر الجاهلي من أكثر المواضيع التي تميزت بها القصيدة،وكان نتيجة طبيعية لكثير من المشاهد،التي تصادف الشاعر في يومياته؛فالشاعر الجاهلي«رجل رقت مشاعره فكان كتلة أعصاب تهتزّ لكلّ مشهد،وتتفاعل مع كلّ مظهر.ومن ثم كانت انطباعاته واسعة النطاق،عميقة الأثر من الناحية الشعورية،شديدة اللُّصوق بالواقع المحسوس،لا تتعداه إلى التأمل الفكري البعيد المدى.ولما كان كذلك،ولما كان سريع الاعتراف بالشعور،سريع الجواب سريع الاندفاق،فقد عبّر عن كلّ ما سمع وما شاهد بشعر وصفيّ تناول فيه الطبيعة في شتى عناصرها،من جماد وحيوان ونبات وإنسان؛وتناول الطبيعة المصطنعة التي كيّفتها يد الإنسان وأقامت منها قلاعا وحصونا وما إلى ذلك مما ينطق به الشعر الجاهلي في غلّوه البدائي وحماسته الطفولية»[1].

[1] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي،(الأدب القديم)دار الجيل،بيروت-لبنان،دط،دت،ص143.

الشاعر الجاهلي سريع الانفعال بكل ما يحدث حوله، من مشاهد يهتز لها كيانه وينفعل منها، ولكن هذا التفاعل، والانفعال القائم على المحسوس بالواقع، أبعده عن التأمل الفكري، فهو يصف ما يشاهده بالعين المجردة ولذلك فقد تناول وصف الطبيعة باعتبارها مشهدا وجد فيه الوصف مباشرة، وقد تضمن هذا الوصف الطبيعة بنوعيها:الجامدة والحية.

أ/ وصف الطلل:

والوصف كموضوع عام عبّر عن مضامين متعددة، ولعل أشهر هذه المضامين التي التفّ حولها الشعر وهو ما كان مرتبطا عندهم بوصف الأطلال،باعتبارها صورة معبرة عن حياة العرب،القائمة على الترحال والبحث عن سبل المعيشة، فلزم الشاعر الحنين،والتذكر،لأيامه الفانية لذلك كان«البكاء على الأطلال موضوع أصيل في الشعر الجاهلي ذو ارتباط وثيق بحياة العرب البدوية القائمة على الحل والترحال في المعيشة واللقاء والفراق في الحب.والشاعر عندما تقوده يد المشيئة في تنقله الدائم إلى المرور بالأماكن التي أقامت بها محبوبته وأهلها،وقد صارت أطلالا خالية ودمنا مهجورة وبقايا أثار،يستعيد ذكريات الماضي الحلوة فتحيا لوعته من جديد ومعها صبابته واشتياقه إلى الحبيب يقول شعرا رقيقا يصفها فيه ويضمّنه ألمه الشديد ووجده المفرط»[1].

فالوقوف على الأطلال والبكاء عليها كان مبدأً أصيلا، لا مفر منه عند نظم القصائد، وهو لا يمثل الوثوب على البقايا والآثار التي زالت بفعل عوامل الدهر،وإنما«وقفة الشاعر على الأطلال ليست مجرد وقفة على أثار ودمن،لو أراد المرء أن يتبينها فلن يجد فيها غير بقايا ليس لها قيمة تذكر،فالراحلون الظاعنون عن الديار بدو قوام حياتهم الترحال،فإذا انتقلوا من موطن إلى موطن لم يتركوا وراءهم شيئا مهماً،فنحن لانجد

[1] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية-بن عكنون-الجزائر،1994،ص:54،55.

وقفة أمام قصر هجره أصحابه،أو معبد،أو هرم،إنما هي رسوم دارسة عافية ليس فيها غير رماد النيران وبعر الحيوان،فالموقف يتصل بما ترمز إليه هذه الأطلال،وهي ترمز إلى الأهل والأحباب الذين هجروها،وإلى الحياة التي انقضت وحل مكانها الفناء»[1].

لا يدل الوقوف على الأطلال على المفهوم السطحي للطلل،ولكنه يرمز إلى أبعاد أكثر عمقا،وهو إحساس الشاعر بالتناقض في هذا العالم، وكذلك هو شعور الشاعر بالوحدة بعد ما كان يعيش وسط أهله وأحبته...

وكان أول من سنّ للشعراء هذا الملمح الفني في القصيد هو امرؤ القيس في مطلع معلقته بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللِّوى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل[2].

بعد الغياب الطويل يفنى كل شيء، ويبلى ويزول وثمة حاجة نفسية عند الإنسان تحركه أمام هذه الحالة التي آل إليها المكان، من دمار واندثار،فالإنسان بطبعه يتوق شوقا إلى ماضيه الجميل، وتلك الأثار التي تخلفها الطبيعة هي صورة رجعية تذكر الإنسان بأيامه الخالية، لذلك كانت الأطلال«من ألوان الوصف الشائعة في الشعر الجاهلي وصف الديار والمنازل التي عفت وصارت أطلالا بعد هجر النّاس لها وارتحالهم إلى أماكن أخرى بحثا عن الكلأ والماء لأنعامهم.ويتميز هذا الوصف بالدقة في إبانة ما فعلته العوامل الطبيعية في تلك الأطلال وفي ذكر أسمائها وتحديد مواقعها بالضبط.وليس فيه أيّ تكلف أو مبالغة بخلاف ما في وصف

[1] حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي(قضايا،وفنون،ونصوص)،ص363.

[2] القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني،المعلقات السبع،تقديم عبد الرحمن المصطفاوي،دار المعرفة-بيروت لبنان،ط02،1425هـ/2004م،ص:17-18.

ألم المحب وضناه.وهو وصف ينضح بالواقعية ويصوّر حاله بقايا الديار ورسوم الدمن كما تراها العين المجردة»[1].

إنَّ وصف الديار في المقدمة الطللية، هو وصف واقعي حقيقي، لأنه رؤية بالعين المجردة، لتلك الديار التي انمحت بفعل العوامل الطبيعية، والشاعر ينفعل حينما يعبر طريق الديار التي أضحت بقايا وأثارا.

وقد تعددت موضوعات الوصف في أشعار الشعراء، من وصف المرأة، إلى وصف الرحلة، ووصف الطبيعة، ووصف الدهر. والوصف كموضوع عام في الشعر الجاهلي يعد من أقدم الأغراض، لأنه يعالج قضايا متصلة بحياة الإنسان والأشياء المحيطة به حيث«إذا ثبت أن المحسوس في اللغة أسبق من المجرد فالوصف من أقدم الأغراض في الشعر الجاهلي،لأنه متصل بالجوارح ألا ترى إلى الحواس:كيف تحمل من الطبيعة إلى الدماغ صور الموصوفات مرئية ومسموعة؟ثم كيف يترجم اللسان هذه الصور المتصورة في الدماغ أبياتا ومقطعات،أو قصائد مطوّلة،تعيد رسم هذه الصور على النحو الفني الذي يختاره الشاعر؟»[2].

ب/وصف المرأة:

الوصف من حيث هو موضوع كان من أقدم الأغراض الشعرية كونه متصل بالجوارح،و هو يتعلق بوصف الأشياء المحسوسة أكثر من المجردة،والشعراء تفننوا فيه، وكان وصف المرأة أكثر شهرة،وقد ووصفوها لدوافع كثيرة،فالمرأة عند الشاعر الجاهلي هي:«...امرأة نموذجية صورها الشعراء من خلال تصور خاص،ومعايير جمالية قد يكون للجماعة دور فيها،لكن أكثرها من إبداعهم،فعين الشاعر تتجه في المقام

[1] د. زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ص56-57.

[2] د.غازي طليمات،وأ.عرفات الأشقر،تاريخ الأدب العربي،الأدب الجاهلي قضاياه،أغراضه،أعلامه،فنونه،دار الإرشاد حمص،ط01،1412هـ/1992م،ص63.

الأول إلى عالم الشعر،والمعجم الشعري ينتمي إلى عالم الشعر،وإلى عالم الشعراء،مثلما ينتمي إلى عالم الواقع»[1].

المرأة:أم،أخت وزوجة،هي الوعاء الذي يتدفق حبا،وحنانا وعطفا وهي باختصار عين المجتمع، وصفها الشعراء وتفننوا في وصفها كزوجة تطعمهم مذاق الحب،والأمل في زمن وجد فيه الشاعر العربي بيئة قاسية. ولكن السؤال المطروح كيف قدِّمت المرأة أو من أية زاوية نظر إليها الشعراء؟ وعلى إثر هذا السؤال نصادف الناقد "أدونيس" الذي رأى أن الشاعر الجاهلي جعل المرأة في شعره:«رمز الخصب والطمأنينة،رمز ما يبعث ويخلق،وما يعلو ويتسامى.وهو يشعر،إذ يسيطر على المرأة،أنه يسيطر على الطبيعة نفسها.فالمرأة غاية لغايات وراءها وأكثر منها.كأنّ الشاعر العربي يعتمد أن في المرأة قوة سحرية خيرة تؤثر في الروح والجسد معا،وهو يقرنها دائما بالطبيعة ويراها خلالها،حتى ليخيّل أن موقفه هذا يضمر شعورا بتفوقها عليه»[2].

فالمرأة عالم الشاعر الذي يلج إليه،فهي غاية لغايات يبحث عنها،هي الجمرة التي تضرم في نفسه نار الشعر، يقرنها بالطبيعة؛ فالطبيعة بالنسبة للشاعر مكانٌ للمؤانسة، والمرأة هي رمز هذا الأنس الذي يبعث في نفس الشاعر مشاعر الحب والقوة.

وقد يختلف النظر إليها ولذلك حضورها عند الشاعر الصعلوك«ليس حقيقيا بقدر ما هو رمزي،يعبّر عن رؤاهم وتصوراتهم للمجتمع والحياة،فالمرأة في حياة الشاعر الصعلوك ليست زوجة أو حبيبة حقيقية تدفعه إلى

[1] حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي،قضايا،وفنون،ونصوص،ص06.

[2] أدونيس،ديوان الشعر العربي،دار المدى للثقافة والنشر،سوريا-دمشق،مج01، دط، 1996 ،ص15.

التعقل والركون إلى السكون والدعة والاستقرار،وإنما هي نسق ثقافي مضمر يجسد حقيقة الصراع بين الصعلوك والقبيلة»[1].

إنَّ المرأة عند الشاعر الصعلوك يجردها من مكانتها الاجتماعية التي فطرت عليها فهو يمضي بها إلى جعلها وسيلة تحقق له الصراع القائم بينه وبين قبيلته.

لم يمكث الشعر الجاهلي في حدود وصف المرأة فقط،بل كان الشعر الوصفي حاضراً في كل شيء.

ج/ وصف الدهر:

يشكل الدهر قوة خارقة،لا يمكن التصدي لها،لأن كل شيء أصبح مسجّلا في رزنامة الغياب :«وأعني بالدهر القوة الخارقة التي لا تمكن مقاومتها:تأخذ كل شيء وتغيّر كل شيء أمام هذه القوة يحس الشاعر الجاهلي أنه عاجز ولا حيلة له.إنها ليست قوة الموت،بل قوة الحركة الأفقية التي تندرج في تيارها ظاهرة الغياب-غياب الحبيبة والربع والأهل والأصدقاء-إنه شيء خفي،يأتي من الخلف مفاجئا،لا يغلب.ومجيئه حتمي-الآن أو غدا أو بعد هنيهة هذه القوة ليست ظاهرة عابرة،وإنما هي نمط الحياة.من هنا الكآبة المنغرسة في الروح العربية والشعر العربي»[2].

الدهر فاجعة الشاعر لا لأنه وقت انقضى،بل لأنه وقت اقترن الفراق فيه بمن هم أمال الشاعر، الدهر يذكره بغياب الأهل والحبيبة والربع وكل شيء يخيّل إليه في هذا الزمن الذي فارقهم فيه.

[1] د.يوسف عليمات،النسق الثقافي(قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم) عالم الكتب الحديث الجامعة الهاشمية،اربد،ط01، 1430هـ/2009م،ص127.
[2] أدونيس،ديوان الشعر العربي،ص28.

ويرتبط موقف الشاعر اتجاه الزمان بفكرة الفناء، فالزمن يمثل مكسباً ثميناً للإنسان، وضياعه خسارة لا تعوض، فالشعراء الجاهليون كان«إحساسهم بالزمن قد ارتبط بإحساسهم بالموت والفناء،ولقد كانت حياتهم وبقاؤهم،بمثابة الممكن الوحيد في مواجهة الفناء والموت الذي يهدد الأحياء جميعهم»[1].

فكرة الموت والفناء شغلت بال الشعراء، لأن الإنسان يشعر في داخله أن هناك تقدم زمني يهدد حياته،والجاهلي بطبيعة الحال رجل وثني الديانة، فهو لا يطمئن لحاله، لأنه يجهل مصيره، وهو يشعر دوما بأن هناك وقت سيفنى ولا دري ماذا يفعل.

والزمن عند الشعراء الجاهليين هو«تلك القوة الخفية،المدبرة للأحداث والشاعر حين يصوّر الزمن ويجسده في تلك الصورة الحسية،إنما يكشف عن تصور ورؤية و موقف،لقد كان الجاهليون ينظرون إلى الزمن،من خلال أحداثه،ولأن هذه الأحداث تمثل سلبا بالنسبة للإنسان،فإن نظرتهم للزمن تنم عن عداء له،وتوجس منه وحيرة،إن تصوير الشاعر للدهر بغول مفترس،ختور العهد،غدار يلتهم الرجال،ويزيل القوى،ويملك السهول والجبال،ويبدد بقوته الأفاق،ويسوق الأحياء إلى مشارقها،حيث الفناء،والعدم،هذا التصوير يكشف عن موقف الشاعر الذي يمثل رؤية العصر،حيث لا توجد فلسفة واضحة في الحياة والموت،والزمان،بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة»[2].

وصف الشاعر الجاهلي الزمن بمواصفات تكشف في عمقها قلقه، وخوفه،إزاء ما يتركه من أثار تعود سلبا على حياته،فالزمن أو الدهر يمثل القوة والسيطرة ،ويرتبط قلق الشاعر من الدهر جراء ما يحدثه

[1] حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي قضايا،وفنون،ونصوص،ص273.
[2] المرجع نفسه،ص293.

الزمن من تغيير، ومفارقات في هذا الكون؛ فالشاعر يرتحل من مكان إلى آخر وحين عودته بعد زمن طويل إلى مكانه الأول يجده تبدل وهنا يعتقد الشاعر أن للزمن قوة فعلت ذلك.

ومن ذلك كان الليل عند الشاعر الجاهلي«هاجسا مركزيا بسبب الظلام الدامس الذي يستر الأشياء،ويجعل المرء عديم الجدوى،إذ يشله عن الحركة التي اعتاد ممارستها في النهار،ويدخله في دوامة القلق والتوتر...وفي ظل إحساس الشاعر الجاهلي بلا جدوى هذا الزمن في البيئة العربية القديمة،فإنه كان يهتم لهذا الأمر سواء تعلق ذلك بتجربته الخاصة،أو بتجربة المجتمع القبلي من حوله،ولذلك عبر في العديد من المواقف عن عجزه أمام قسوة الليل وشراسته»[1].

ومن تلك الصور التي صورها امرؤ القيس عن الليل في قوله:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سدُولَهُ عليَّ بأنْواعِ الهُمومِ ليَبْتلي

فيالكَ من ليلٍ كأنَّ نجوُمَهُ بأمراسِ كتانٍ إلى صم جندَلِ[2].

ثانيا موضوع الفخر:

إن موضوع الفخر شغل مساحة واسعة في الشعر الجاهلي، وقد تعدد في مضامينه، من فخر بالكرم، إلى فخر بمناقب القبيلة،وآخر بالفروسية، وبالجود والعطاء تارة أخرى«وبذلك ينطوي الفخر على معاناة شبه وجودية من الصراع مع حتميات الحياة في العوز والاكتفاء وأنه لا يذعن لما تفرضه عليه وأنه لا ينقاد للضرورة بل إنه يذل الضرورة كي يبقى حرا،يتصرف وفقا ليقينه وبالنسبة إلى القيم الإنسانية التي يؤمن بها.وفي خلد الشاعر وفي وعيه أو لا وعيه إن الفقر إنما هو ضرب من الختم الذي يرهق الإنسان ويدعه

[1] د.باديس يوسف فوغالي،الزمان والمكان في الشعر الجاهلي،عالم الكتب الحديث،إربد-الأردن،جدارا للكتاب العالمي لأردن،ط01 ،1429هـ/2008م، ص130.

[2] امرؤ القيس،ديوانه،اعتناء وشرح،عبد الرحمن المصطفاوي،دار المعرفة،بيروت-لبنان،ط02،1425هـ/2004م،ص15.

يتخلى عن القيم التي تصون كرامته وتحفظ حياة الآخرين،فضلا عن حياته.فإذا رضخ له وأقام عند حدوده كأنه إنما أمسى عبدا للحاجة والضرورة وهو إذ يبذل في حالة عسره إنما يتصدى لعبودية الحياة والحاجة،وينبري لها بإرادته ويتعصى عليها بنخوته.فالعطاء حتى الإصابة بالفقر كان فعل حرية وإرادة وصمود وإن كان يتباهى به فإنه يعبر عن فرحه بسيادته الدائمة على نفسه وعلى الحياة»[1].

اقترن مضمون الفخر بحالة من التباهي، والإرادة وعدم خضوع الشاعر للعراقيل، فالشاعر هنا تغلب عليه روح الأنفة،فيقف شامخا في وجه المعوقات التي يعاني منها كالفقر مثلا يحاول الشاعر أن يتغلب عليه حتى يظهر أمام الملأ بأنه قوي ولا يحتاج إلى من يكفله.

ومن جهة أخرى كان الفخر هو تمجيد بفضائل القبائل والإعلاء من شأنها وهو ما نلمسه في شعر "حسان بن ثابت" في جاهليته وهو القائل:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني مُحَرِّقٍ فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما[2].

و"عنترة بن شداد" وجه آخر للفخر نلمس في شعره طغيان الانتصار لنفسه فهو الشجاع الذي يتصدى لمواجهة الآخرين وهذا الفخر جاء نتيجة للقهر الذي حل به.

يقول "عنترة بن شداد" مفتخرا بشجاعته وبطولته:

وإذا ظُلِمتُ فإنَّ ظلمي باسل مرٌّ،مذاقتُهُ كطعْمِ العلْقَمِ

هلاَّ سألتِ الخيلَ يا بنةَ مالكٍ إن كنت جاهلةً بما لم تعلمي

[1] إيليا الحاوي،في الأدب والنقد(مقطوعات من العصر الإسلامي والأموي)،ج02،دار الكتب اللبناني-بيروت،ط04، 1979،ص195.
[2] عصام قصبجي،أصول النقد العربي القديم،ص07.

يخبرك من شهد الوقيعةَ أنَّني أغشى الوغى وأعفّ عند المغنمِ

مدجَّجٍ كَرِهَ الكُماة نِزالَهُ لا ممعنٍ هرباً ولا مستسْلِمِ[1].

ثالثا موضوع الصعلكة:

إذا كان الشعر وليد ظروف معينة، أو هو نتاج اجتماعي يعبر عن مدى حاجة الإنسان نحو مجتمعه، الذي يخضع لمقاييس العرف العام، وما هو معلوم أن المجتمع في أي أمة لا بد وأن يحدث خللاً في التوازن ولعل هذا السبب كان:«من الطبيعي-مادامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها"الغزو والإغارة للسلب والنهب"-أن يكون أكبر ما يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم،لأن هذه المغامرات هي"الحرفة"التي قامت عليها حياتهم،والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم.وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته،المعجب بها،الفخور ببطولته فيها،أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة»[2].

إن النظام الذي سلكه الصعاليك هو تمرد عن الحالة التي آل إليها الوضع الاجتماعي ذلك أنهم حاولوا تغيير الوضع المرير الذي يعيشونه فتحدثوا عن هذه المغامرات في أشعارهم فكان الشعر وسيلة من وسائل بيان ذلك.

والصعاليك كانت لهم مواقف واضحة اتجاه مجتمعهم هي محاولة العدول عن الأنظمة التي لا تقر بالعدالة الاجتماعية، والصعلكة هي:«خروج بعض الشعراء على هذا المجتمع،فقد وجد بعض الشعراء أنفسهم في وضع لم يستطيعوا فيه أن يتوافقوا مع أنفسهم في إطار العلاقات الاجتماعية،وفقدوا التكيف مع

[1] إيليا الحاوي،في النقد و الأدب(مقدمات جمالية عامة وقصائد محللة من العصر الجاهلي)،ج01،دار الكتاب اللبناني-بيروت،ط1986.05،ص183-184.

[2] د.يوسف خليف،الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي،دار المعارف مكتبة الدراسات الأدبية،كورنيش النيل-القاهرة،ط03، 1919م،ص182.

الجماعة،ووصل بهم الحد إلى الخروج على المجتمع والتمرد عليه،لقد كان الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي أفرادا متميزين،من حيث كونهم شعراء فرسان،فالشاعر رجل،متميز في مجتمعه،فإذا جمع إلى جانب ذلك الفروسية والقدرة على القتال،فإنه يكون قد جمع إمكانات الرفض لأي وضع لا يتفق وشاعريته من ناحية،وفروسيته من ناحية أخرى»[1].

واضح من هذا النص أن هذه الفئة كانت تحاول الخروج عن وضعها السيء الذي فُرِض عليها من طرف المجتمع، فهؤلاء الشعراء أَبَوْا إلا أن يتمردوا عن المجتمع بكل تشكيلاته السياسية، والاجتماعية وهذه نتيجة طبيعية لعدم وجود توافق بين طبقات المجتمع فالشاعر الصعلوك أحسن بذلك و عبّر عن موقفه الرافض للوضع القائم على الظلم والاستبداد بهذه المقطوعات الشعرية التي تبين الحالة المزرية له.

وأما الحديث عن شعرهم فقد «دار شعرهم حول عدوهم وسرعته،وحول إغاراتهم ومغامراتهم،وتشردهم في الفلوات؛وكثيرا ما أظهروا استئناسهم بوحش الصحراء وتفضيلهم له على الأهل.ولا عجب في ذلك فهم أبعد ما يكون الإنسان عن المجتمع البشري،وهم أقرب ما يكون الإنسان إلى الحياة المتوحشة،وقد عاشروا الوحوش والطير والحشرات،وعرفوا أسرار طبائعها حتى كان لهم بها صلة نفسية شعورية.ونظموا الشعر في وصفها وتفسير انفعالاتها وتفاعلاتها...وقد أكثروا من وصفها وذكر مسالكها ومضلاتها...»[2].

شعر الصعاليك هو شعر ممزوج بما يعانيه الشاعر من ظلم، وقهر وهو حكاية عن مغامراتهم ،وتشردهم في الفيافي المقفرة،والحيوانات الموحشة، ومن شعراء هذه الطائفة نجد: تأبط شرا وعروة بن الورد والسليك بن سليكة والشنفرى وغيرهم.

[1] حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي قضايا،وفنون،ونصوص،ص165.

[2] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)،ص:165-166.

وتأبط شرا يصف صورة الصعلوك المغامر المتشرد في الفيافي بين أرجاء الصحراء الموحشة وفي الليل الحالك يقول:

وأدْهمَ قد جُبْتُ جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعلا

إلى أن حدا الصبح أثناءه ومزَّق جلبابه الأليْلا

على شيمِ نار تنوَّرتها فبت لها مدبرا مقبلا

فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتا أنت ما أهولا[1].

ثالثا:موضوع العقائد الدينية والقيم الغيبية.

جدلية التفكير أمر طبيعي وهي مناط التأمل في هذا الوجود الذي يدركه المرء بالمشاهدة«وقد عكس الأدب الجاهلي بعامة و-الشعر بخاصة-جدلا بين الإنسان ووجوده الذي يتمثل في المجتمع،وفي الزمان،والمكان،كما عكس جدلا بينه وبين ذاته في تأملها لهذا الوجود،وفي قبولها ورفضها،واستسلامها وتمردها،وفي انطوائها واغترابها...وكان الشعر الجاهلي صورة من صور وعي هذا المجتمع بنفسه وبالحياة والكون»[2].الشاعر الجاهلي عكس في شعره ثنائيات عديدة،منها ثنائية الزمان،والمكان،وحقيقة الإنسان ووجوده؛فالشعر عبّر عن التصور مما يدل على أن هذا الشاعر كان له إدراك ووعي بالحياة،والكون إلى جانب أن الشاعر كانت له رؤية تأملية حول ما يحيط به وهذا مما يؤكد أن الجاهلي بدأت تتشكل في وجدانه رؤية العالم الغيبي.

[1] د.يوسف خليف،الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي،ص247.

[2] أ.د.حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي قضايا،وفنون،ونصوص،ص8.

إنّ العبادة شيء راسخ في وجدان الإنسان،منذ الأزل،وهو مجبول بطبعه،وفطرته يشعر بأنّ هناك قوة خارجية تتحكم فيه،ونظرا لهذه المعتقدات التي يؤمن بها الإنسان،بغض النظر عن صحة اعتقادها والجاهلي كان وثني العبادة ومعتقداته هي السحر والكهانة«وفي العصر الحديث حاول "كارل بروكلمان"تحديد الموضوعات الأولى في الشعر الجاهلي واستعان في هذا التحديد بدراسات من سبقوه من الباحثين الغربيين،واستنبط من هذه الدراسات أن بدايات الشعر الجاهلي ارتبطت بالسحر،وأنّ الهجاء كان في يد الشاعر سحرا يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري.ومن ثمّ كان الشاعر إذا تهيّأ لإطلاق مثل ذلك اللّعن،يلبس زيّا خاصا شبيها بزي الكاهن.ومن هنا أيضا تسميته بالشاعر»[1].

وجرجي زيدان يرى الحديث في هذه الموضوعات قليل جدا حيث يقول في هذا الشأن:«إنهم نظموا الأشعار...خاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها واستعطفوها وصلوا لها وتخشعوا أمامها،ولكن منظوماتهم في هذا الموضوع ضاعت في ثنايا الأجيال لعدم تدوينها ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التي قامت قبيل الإسلام»[2].

الاعتقاد الذي كان سائدا عنده الجاهليين أن هناك قوة تملي على الشاعر فن القول ومن ذلك كان لهذا العمل فعل خاص حتى في اللباس؛فالشاعر يعتقد أن هناك شياطين توحي لهم هذا الإلهام.

[1] د.غازي طليمات،وأ.عرفات الأشقر،تاريخ الأدب العربي،الأدب الجاهلي قضاياه،أغراضه،أعلامه،فنونه،ص62.

[2] جرجي زيدان،تاريخ آداب اللغة العربية،ج01،منشئ الهلال ،دت،ص52.

المبحث الثاني:أغراض الشعر الجاهلي.

اتسمت القصيدة الجاهلية بأغراض متنوعة،هي الهجاء، والفخر، والمدح،والوصف، وكل غرض من هذه الأغراض يحمل خصوصية البيئة الجاهلية من جهة،وخصوصية الأعراف والتقاليد في هذا العصر من جهة ثانية،وقد كانت أغراض الشعر الجاهلي صورة حية عن الموضوعات التي دارت حولها قصائد الجاهليين.

و قبل الولوج في تحديد معاني أغراض الشعر الجاهلي،لا بد من الإشارة إلى أن الشعر الجاهلي لم يحفظ كما نظمه أصحابه،بل أصابه التزييف،والنحل،والوضع،وهو ما تطرق إليه الباحث"د.زبير دراقي بقوله:«ومن سوء حظ الشعر الجاهلي الذي انطمست بواكيره الأولى في مجاهل التاريخ أننا لا نستطيع اليوم تصنيف أغراضه على أساس تاريخي لمعرفة ما هي المواضيع التي ظهرت قبل الأخرى-وكيف نشأت وتطورت وهل ضاع بعضها أو بقيت كلها؟وأغلب الظن أنها نشأت وهو رأي المستشرق الألماني بروكلمان.من أناشيد دينية كالأدعية والابتهالات ثم انفصلت عنها فيما بعد واستقلت بنفسها»[1].

إذا كان الشعر الجاهلي جله طمس في مجاهل التاريخ،فإنّ ما يطرحه الباحث في النص دليل على أن هذه الأغراض ضاع منها قدر كبير، ومن هنا لم يتسن للدارسين تصنيف هذه الأغراض على أساس ظهورها.

غير أنّ هناك بعض الأغراض سلمت من الضياع،وبقيت على قيد الدراسة:«إنّ الأغراض التي بقيت من الشعر الجاهلي وحملها لنا في ثناياه هي الغزل،والوصف،والمديح،والرثاء،والفخر،والحماسة،والهجاء،والخمر والحكمة»[2].

[1] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ص52.

[2] المرجع نفسه،ص52.

أ/ غرض الهجاء:

وكان غرض الهيجاء أبرز هذه الأغراض فقد غطى مساحة كبيرة في القصيد الشعري إذ:«كان الشاعر في الجاهلية لسان قبيلة،فالقبيلة تفتخر على غيرها إذا وُلد فيها شاعر.فالشاعر عزيز في قومه يضع كلماته في خدمة قبيلته وفي سبيل الدفاع عنها،وكانت القبائل تعتمد في حروبها على الشعر اعتمادها على السلاح وكثيرا ما كان الهجاء أمر من السيف»[1].

وكانت حاجة الشاعر الجاهلي إلى الهجاء ضرورة توجبها الأعراف ذلك أنه يتخذه ذريعة للرد على الخصوم ومنه تحقق القبائل مكانتها«ولعل الهجاء كان أشد الأغراض الشعرية البائدة شيوعا؛للخصومة بين القبائل،ولاعتقاد العرب فيه.كان الشاعر يصبه صبا على العدو،فينال من أعراضهم ومروءاتهم،ويثير عليهم الأرواح الشريرة،ويسلط عليهم الشياطين التي تمده بهذا الشعر كما يعتقدون»[2].

شيوع غرض الهجاء في العصر الجاهلي يعكس عقلية الإنسان العربي الذي يتميز بغلظة الطبع وهو يؤجج نار الفتن بين القبائل،والهجاء فن اتخذه الشعراء الجاهليون لإظهار الصفات الذميمة على خصومهم«ففي الهجاء نرى الشاعر يرسم لخصومه النموذج القبيح،فيصفهم بكل صفات القبح،ويسلبهم كل الصفات الفاضلة أو بعضها»[3].

و لما كانت العرب أمة تريد التغلب على أقرانها جعلت الهجاء سهما من السهام التي تحمي به نفسها وتدافع عن مكانتها التي مجدتها، والهجاء كان أشد من القتل.والأمثلة في هذا الإطار كثيرة.

[1] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعون،(الهيجاء في الشعر العربي)دار الراتب الجامعية،بيروت-لبنان،مج 03،ص09.

[2] أ.طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب(من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)ص16.

[3] حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي قضايا،وفنون،ونصوص،ص91.

اتخذ الشاعر الجاهلي الأعشى الهجاء ذريعة للدفاع عن قبيلته ومناصرتها وقد هجا قبيلة إياد بقوله:" بأنهم أهل زرع وليسوا أصحاب حرب"

يقول الأعشى:

لسنا كمن جعلت إياد دارَها تكريت تنظر حبَّها أن يحصدا

قوما يعالج قُملا أبناؤهم وسلاسلا أجد وبابا مؤصدا[1].

وهجا الأعشى علقمة بن علاثة:

لعمري لئن أمسى من الحيّ شاخصا لقد نال خيصا من عفيرة خائصا.

إذا جُرِّدت يوما حسِبت خميصةً عليها، وجِرْيالا، يُضِيءُ دُلامصاً

تقمَّرها شيخٌ عشاءً،فأصبحت قُضاعيّة تأتي الكواهنَ ناشصاً[2].

ب/غرض الغزل:

غرض الغزل وهو غرض مشهور عند العرب لما فيه من رقة وعطف يلامس القلوب«والغزل في العرف هو التعلق الشديد بامرأة والهيام بها.وهو على نوعين:غزل بدوي عفيف مقصور على امرأة واحدة ويمتاز بالصدق والإلتياع–ويسمّى لرقته نسيبا–وقد مثّله عنترة بن شدّاد العبسي،وغزل حضري مادي يتّصف بالإباحية وتعدد المحبوبات–ويسمّى اللهوه تشبيبا–وقد مثّله امرؤ القيس الكندي»[3].

الغزل عرف بضربين هما:الغزل العفيف والماجن فالأول نلمس فيه روح الصدق ويسمى نسيبا والثاني يتصف بالإباحية وتعدد المحبوبات.

[1] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعون،(الهيجاء في الشعر العربي)مج03،ص10.

[2] الأعشى الكبير ميمون بن قيس،ديوان الأعشى،شرح وتقديم،مهدي محمد ناصر الدين،دار الكتب العلمية،بيروت–لبنان،ط02، 1413هـ/1993م،ص99.

[3] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ص52.

والغزل أمر طبيعي عند الإنسان وكان الشاعر الجاهلي لا تحده قيم يقول ما يشاء «والغزل ذو نشوء طبيعي في الجاهلية،وكانت النساء سافرات لا يتبرقعن ولا يتحجبن عن أنظار الجنس الآخر،إلا ما كان هنالك من بعض التلثّم.والنساء أنواع منهنّ الحرائر المتصونات،ومنهن المتبذلات.والميل بين الجنسين أحدهما إلى آخر ميل طبيعي غايته وكماله الزواج.وكان تعدد الزوجات وإباحة ما في ملك الرجل من الإماء شائعا في الجاهلية.والميل يظهر بالحب والولع بالجمال،والحب والولع يقودان إلى التغني بمظاهر ذلك الجمال.وهذا التغني هو الغزل،ويدعى النّسيب والتشبيب.قيل بل التّشبيب ذكر أيام الشباب،واللهو والغزل،وذلك يكون في ابتداء قصائد الشعر»[1].

والغزل في الشعر الجاهلي لم«يكن فنا قائما بذاته:فلم تكن تنظم فيه قصائد مستقلة ولم يكن له شعراء متخصصون فيه يقفون شعرهم كلّه أو أكثر عليه؛وإنما كان غرضا من جملة أغراض من القصيدة لا يوليه الشاعر أكثر مما يولي غيره من الأغراض من عنايته واهتمامه،ولا يتفنّن في وصف حبيبته أكثر مما يتفنن في وصف فرسه أوناقته»[2].

الهدف الذي يبحث عنه الشاعر من وراء التغزل ليس بالمعنى الظاهر، وإنما الشاعر يريد أن يتفنن في وصف فرسه، أو ناقته، وغرض الغزل لم تكن له قصائد مستقلة بذاتها ولكنه يأتي مصحوبا مع الأغراض الأخرى وكان التغزل بالمرأة ظاهرة معروفة عند معظم الشعراء الجاهليين حيث يعتبر امرؤ القيس من الشعراء البارزين في هذا الاختصاص وهو القائل:

فمِثْلِكِ حُبْلى قد طرقتُ ومُرضِع فألهيتها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

[1] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي،الأدب القديم،ص145.

[2] عمر بن أبي ربيعة،ديوان،شرح وتقديم،عبد أ.علي مهنا،دار الكتب العلمية-بيروت لبنان،دط،دت،ص05.

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشِقّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ[1].

ج/غرض الفخر:

ارتبط ظهور هذا الغرض بقيم القبيلة، ذلك أنها تمثل الاحترام والتقدير، والشرف فالخروج عنها هو تمرد عن العرف العام، فكل شيء خاضع لمقاييسها فـ«كان مرد الفخر عند الجاهلي إلى العصبية القبلية والحياة الفطرية.أضف إلى ذلك أن حياة الجاهلي الخشنة قد انعكست على نفسه قوةً وصرامةً وجلدا،ولا سيما وأنها كانت حياةً حافلةً بالأخطار.وقد خلعت الصحراء بقوانينها الصارمة على العربي مجموعة من الصفات والفضائل النفسية ملأت صدره فانفجرت شعرا فخريا وحماسيا كان صدى طويلا لما يجيش في النفوس»[2].

ولهذا الغرض محتوى يعبر عنه يتمثل في اتصاله بقيم، وفضائل تحتكم إلى معايير المجتمع«وقد تنوعت أساليب الفخر عند العرب وهي صورة صادقة لما كانت تعج به بيئة العرب من خلال كريمة وشجاعة وبأس ونصرة وتآخي وإغاثة ونجدة وظلم وما إلى ذلك من ألوان الفخر...وباختصار فإن الفخر هو تمدّح المرء بخصال نفسه وقومه والتحدث بحسن بلائهم وكرم عنصرهم ووفرة قبيلهم،ورفعة حسبهم ونسبهم وشهرة شجاعتهم»[3].

ومن ذلك روي لعمرو بن الإطنابة شعرٌ يفتخر فيه بقومه في الجاهلية بقوله:

إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل

[1] أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري،ذخائر العرب،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات،تح وتعليق،عبد السلام محمد هارون،دار المعاف،كورنيش النيل القاهرة-مصر،ط04 ،1400هـ/1980م،ص:39-41.

[2] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي،(الأدب القديم)ص:140-141.

[3] أ.عروة عمر،الشعر الجاهلي(حياة العرب الأدبية)دار مداني وزارة الثقافة،دط،2008،ص:110.

المانعين من الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل

والخالطين فقيرهم بغنيّهم والباذلين عطاءهم للسائل

والضاربين الكبش بيرق بيضه ضرب المهجهج عن حياض الأبل[1].

د/غرض الحماسة:

لما كانت صورة المجتمع الجاهلي قائمة على مظاهر البطولة،والتفاخر بما تحققه القبيلة،من انتصارات تتباهى به مع القبائل الأخرى،استدعى غرض الحماسة والتي«تعني التباجح بمظاهر القوة والبطش،والتغني بالبطولة والإشادة بانتصارات القبيلة في المعارك.وهي أهم موضوع في الشعر الجاهلي فرضته كثرة الأيام أو الحروب الدائرة رحاها بين القبائل من أجل الدفاع عن شرفها،وحماها وما ملكت يداها.وكان طبيعيا جدا أن يتغنى الشعراء ببطولات قومهم وإقبالهم من غير رهبة ولا خوف على الموت منكلين بأعدائهم شر تنكيل ومفتخرين بشجاعتهم»[2].

عبّر غرض الحماسة عن معان الإشادة بالبطولة، وتغني بها فكانت روح الشجاعة تملك نفوس الشعراء وقد يجتمع موضوع غرض الفخر مع غرض الحماسة، وهو ما نجده في قول عمرو بن كلثوم في تغنيه بأيام قومه وغاراتهم المشهورة قائلا بذلك:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طـــــوال عصينا الملك فيها أن ندينا

[1] أ.المرجع السابق ص110.

[2] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ص79.

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلـــــدة أعنتها صفونا[1].

المبحث الثالث:الخصائص الفنية في القصيدة الجاهلية.

أ/على مستوى المضمون:

إذا أردنا الحديث عن مضامين الشعر فإن المضمون يكتسي مساحة شاسعة، أو هو النواة المركزية في فهم مداخيل الشعر، وكوامنه، وأعماقه الغامضة،فالمضمون يمثل جزءً مهما في إدراك أبعاد الشعر، وبفضله نصل إلى الغاية المنشودة التي يريدها الشاعر.

-الغنائية:

[1]أ.عروة عمر،الشعر الجاهلي(حياة العرب الأدبية)ص111.

وهي ظاهرة عُرِف بها الشعر الجاهلي لما لها من مزايا تساعد على تثبيت الحفظ حيث يقول "عصام قصبجي":«إنّ الشعر الجاهلي شعر غنائي،فالشعر الجاهلي حداء ذاتي،والحداء والغناء صنوان ينبعان من أنغام النفس لا من شوائب الفكر،من الذات لا من الموضوع»[1].

ويفصل هذه النقطة بشكل واسع الباحث "السيد محمود شكري الألوسي البغدادي"قائلا:«وغناء العرب على ثلاثة أوجه:النصب،والسناد،والهزج،"فأما النصب"فغناء الركبان وغناء الفتيان.قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:"وهو الذي يقال له المراثي وهو الغناء الجنابي اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل فنسب إليه،ومنه كان أصل الحداء كله،وكله يخرج من الطويل في العروض."وأما السّناد"فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات،وهو على ست طرق:الثقيل الأول وخفيفه، والثقيل الثاني وخفيفه والرمل وخفيفه"وأما الهزج"فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم–قال إسحاق:هذا كان غناء العرب»[2].

ويقسم هذه الخاصية الباحث"محمود الألوسي البغدادي"إلى ثلاثة وجوه هي:النصب،والسناد،والهزج وكل وجه من هذه الوجوه يتفرع إلى أجزاء وما يميز هذا الشعر أنه« شعر شفوي نشأ في وسط غنائي وكان من أجل الغناء والدليل استعمال الشعراء للعصا كما يستعملها منشد المها بارانا الهندية والمغنون والمتجولون في أواسط أوروبة في القرون الوسطى وكان الغناء شائعا في العصر الجاهلي فقد كان هناك القيان اللاتي يستعملن المزامر والدفوف وهن يتغنين بالشعر»[3].

---

[1] د.عصام قصبجي،أصول النقد العربي القديم،ص06.

[2] السيد محمود شكري الألوسي البغدادي،بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،شرح وضبط،محمد بهجة الأثري،دار الكتب العلمية بيروت – لبنان،ج01،دط،دت،ص369.

[3] جيمز مونرو،النظم الشفوي في الشعر الجاهلي،تر،د.فضل بن عمار العماري،دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام،المملكة العربية السعودية–الرياض–ط01 1407هـ/1987م،ص15.

والغنائية لا تأتي بشكل عفوي، وإنما تأتي نتيجة لاختيار الشاعر بعض القوافي والأوزان:«و تتجلى غنائية الشعر الجاهلي في اختيار الشعراء قوافيهم الرنانة وأوزانهم المجزوءة (كمجزوء الكامل،والمديد والرجز) والخفيفة (كالهزج،والمتقارب والرمل)الصالحة للغناء والرقص،وفي تصريع مطالع قصائدهم والملاءمة بين الكلمتين الأخيرتين من عجز البيت»[1].

– تعدد الموضوعات:

النمط السائد الذي تسير وفقه معظم القصائد الجاهلية هو أنها متعددة الموضوعات والأغراض وهو ما ذكره عثمان موافي بقوله:«هي غالبا لا تتناول غرضا،أو موضوعا واحدا،بل عدة موضوعات وأغراض،قد يكون بعضها بمثابة تمهيد للآخر.فقد تبدأ ببكاء الأطلال والنّسيب،ثم وصف الرحلة،ويتخلص الشاعر من ذلك إلى الغرض الرئيسي وكثيرا ما يكون المدح»[2].

تتميز القصيدة الجاهلية بتنوع موضوعاتها وأغراضها وهذا التنوع يخدم بقية الأجزاء التي تشكل القصيدة وتعد هذه الكيفية خاصية فنية من خصائص الشعر الجاهلي.

–طول النفس:

الإنسان العربي يعيش في بيئة تفرض عليه جملة من الخصائص التي تنعكس بشكل واضح في أشعار الشعراء، والصحراء كما هو معلوم أنها الأرض الشاسعة التي تمتد إلى فضاء فسيح ،ومن ذلك كانت القصيدة العربية تتميز بأنها:«ذات النفس الطويل بخلوّها من الوحدة الموضوعية لتعدد أغراضها وتنوّع مضمونها.فهي لا تلم بموضوع واحد قائم على شعور أو عاطفة واحدة،وإنما تجمع في ذاتها طائفة من

[1] د.زبير دراقي،المفيد في الأدب الجاهلي ،ص95.

[2] د.عثمان موافي،في نظرية الأدب (من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم)،ج01،دار المعرفة الجامعية،دط،2000م،ص49.

الخواطر المختلفة لا رابط بينها سوى وحدة الوزن والقافية.وعلى نحو معروف ونظام متّبع كان الشاعر الجاهلي يبدأ قصيدته في الغالب الأعم بالوقوف بالديار والبكاء من ذكرى الأحبة أي بالنسيب-ثم ينتقل إلى وصف الظعائن والصحراء حتى إذا ما فرغ من هذا الوصف مرّ إلى غرضه الأساسي من مديح،أو فخر،أو هجاء،أو رثاء أو غيرها من الموضوعات.تلك إذا كانت طبيعة القصيدة الجاهلية الخالية من الوحدة الموضوعية التي تكسبها انسجاما في بنائها المعماري وتبعدها عن كل تفكك واضطراب»[1].

القصيدة الجاهلية تتميز بأنها تملك نفسا طويلا،وطول نفسها جاء نتيجة لكونها متعددة الموضوعات، والأغراض، فهي جامعة لمختلف الأحاسيس، والمشاعر، الكامنة في نفس الشاعر،إلا أنَّ رابطا واحدا يلم هذه العناصر مع بعضها البعض هو وحدة الوزن والقافية.

وهي تتصف بميزة أساسية سار عليها جل الشعراء الذين برزوا في واحة الشعر الجاهلي ولذلك«لا حظ النقاد العرب أن القصيدة العربية عند شعراء الجاهلية مقسمة أقساما،فالشاعر يبدأ بذكر الأطلال،ويصل ذلك بالنّسيب،ثم يصف راحلته ورحلته إلى الممدوح،ويتبع ذلك بمدح الممدوح.هذا هو نظام القصيدة في عمومه،ولكل جزء من أجزاء القصيدة نظام خاص»[2].تتمحور القصيدة الشعرية وفق منهجية سار عليها الشعراء هي:الوقوف على الأطلال ثم المقدمة الغزلية(النسيب) ثم وصف الشاعر راحلته ورحلته وهذا ما اعتاد عليه الشاعر العربي.

- وحدة البيت:

[1] د.زبير دراقي،المفيد في الأدب الجاهلي،ص101.

[2] د.داود غطاشة،وحسين راضي،قضايا النقد العربي قديمها وحديثها،مكتبة دار الثقافة،عمان-الأردن،ط02، 1991م،ص50.

ما يميز الشعر العربي القديم أنه يلتزم بـــ:« وحدة البيت الذي يقوم بذاته ويكتفي بمعناه من غير أن يرتبط بما يسبقه أو يليه من أبيات.وكل بيت كان يؤلف وحدة معنوية وكيانا مستقلا لا يحتاج إلى تضمين أو معاظلة إلا نادرا بحيث يمكن تغيير ترتيبه بتقديمه أو تأخيره دونما حرج.ولئن حدث ذلك واتّصل بيت بما قبله أو بما بعده عُدَّ عيبا من عيوب الشعر المستهجنة.والرباط الوحيد بين أبيات القصيدة الواحدة هو سيرها على وزن واحد وروي واحد من مطلعها إلى نهايتها»[1].

الإطالة والاستطراد:

البيئة الصحراوية علمت الإنسان دروب الحياة،ومنها استمد أفانين القول فكان الشعر يدور حول باديته وما فيها من مظاهر وسمات تنعكس على مقطوعاته الشعرية«ومن الخصائص التي تميز بها الشعر الجاهلي ...الإطالة والاستطراد فالشاعر الجاهلي يطيل القصيدة وقد يخرج عن الموضوع الأساسي إلى مواضع أخرى متعددة،ثم إنّ طبيعة البادية التي يعيش فيها البدوي الشاعر أو ربما الصحراء التي ينتقل في أرجائها حيث الكلأ والماء قد أثرت في الإيحاءات الشعرية وشيطان الشعر لديه فإنّ الشاعر الجاهلي كان بطبيعته فطريا ذا خيال واسع وجامد يعتمد على التشابه والاستعارة أكثر من اعتماده على انتزاع الصورة الواقعية من الطبيعة»[2].

أثّرت عوامل كثيرة في جعل الشاعر يطيل ويستطرد، ومن ضمن هذه العوامل طبيعة البيئة القائمة على الترحال، وعدم الاستقرار،وكذا خياله المحدود.

البناء:

[1] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ص102.

[2] د.راضي نواصره،أثر فتح مكة في أدب صدر الإسلام،دار اليازوري،عمان –الأردن،ط01، 2011م،ص357.

وبناء القصيد الشعري يأتي تبعا لأحوال الشاعر النفسية،والاجتماعية، ومن ثمَّ فهي:« عجيبة البناء،تولد عند الشاعر تبعاً لأحواله النفسية وأحوال زمانه ومكانه،وكثيرا ما تظهر قسما بعد قسم،أو قد يكون الرواة قد حفظوها أقساما أقساما يحتفظ كل واحد منهم بأحد تلك الأقسام؛وهي من ثم تبدو لنا،بعد ما جمعت أجزاؤها،أبياتا متتابعة،تجري على سنن معلوم في الترتيب وفي مجموعة الأفكار وطرائق التعبير والتّصوير والتّشبيه.وكأنّ هنالك سنَّة تقليدية،كما كان لسجع الكهان سنة وطرائق خاصة في التعبير والتّصوير؛وكانت تلك السنة متّبعة اتباعا،لا يكاد يحيد عنها شاعر؛وكان تركيب القصيدة على تلك الطريقة المثال الأعلى لكلّ من نظم الشّعر وأطال النّظم.وكأني بالعلاقة بين الأبيات علاقة شعورية ذكريّة أكثر مما هي تفكيرية عقلية»[1].

إن بناء القصيد الشعري يتوقف عند جملة من المعطيات التي تكون الإبداع عند الشاعر ويكون متبوعا بحالاته الاجتماعية والنفسية وغيرها.

-تعدد المضامين:

الإنسان العربي كان يعيش في وسط بيئي لا يعرف فيه حياة الاستقرار،وهذا مما جعل شعره لا يخلو من هذا الاضطراب، ولذلك نجد القصيدة توحي بمعاني، ومضامين لا تنم على عنصر واحد، بل تتعدى ذلك إلى مضامين عديدة حيث يقول "د.زبير دراقي" في هذه الفكرة:«أما مضمونها أي(القصيدة)،فكان متعددا لتعدد المشاعر الكامنة من ورائه.وما أشبهها بمعرض تُعرض فيه موضوعات مختلفة صادرة عن عواطف مختلفة وخواطر مبعثرة لا يمكن لها أن تشكل بناء فنيا تاما ذا وحدة متكاملة»[2].

[1] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم) ،ص137.

[2] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،102.

القصيدة الشعرية مليئة بالمضامين، وهذا التعدد صادر من مختلف العواطف، والخواطر التي تجيش في نفس الشاعر، وبذلك يكون هذا الشعر هو تعبير عن كوامن مخبأة في عالم النفس، والقصيدة تفصح عنها بطرق قد تكون مباشرة، وقد تكون غامضة لا يفهم إدراك أبعادها إلا من كانت له ملكة قوية في تذوق الشعر.

ولذلك من يتأمل في القصيد الشعري ويغوص في داخله؛ يجده يوحي بكتلة من الكوامن، البعيدة ذات المعاني الغزيرة،فهي تصدر من العواطف الجياشة التي تفيض من عالمها الوجداني.

المضامين على مستوى الأغراض:

فالقصيدة الشعرية تتكون من موضوعات،وأغراض،وخصائص، وكل من هذه العناصر إلا وله مضمون يوحي به،ومن ذلك نجد الأغراض تحمل في طياتها مضامين متعددة بحيث نجد غرض الهجاء مثلا يحمل الكثير من المضامين التي تعكس روح العصر الجاهلي وأهمها أنه:«ليس فقط فن السباب والشّتائم،فإذا تأملنا قصيدة الهجاء نفهم دروسا أخلاقية تشجعنا على العمل بعكس هذه الصفات التي استدعت الهجاء،والشاعر بقوة ألفاظه الهجائية يصور لنا وجهين للحقيقة وللحياة وجه الخير ووجه الشرّ،فهو إذا يرسم لنا مثالا أعلى يدعونا للتطلع إليه»[1].

الدروس التي نستخلصها من الهجاء ليست دائما في الاتجاه السلبي كما هو معتقد وقد يصور لنا الهجاء وجه الحقيقة كما يصور لنا في المقابل وجه الخطأ وهو ما بيّنه لنا صاحب النص السابق.

ومن جهة أخرى يرتبط الهجاء بروح البيئة الصحراوية، والحالة التي تقوم عليها لذلك:«كان الهجاء في الجاهلية مرتبطا جدا بروح الصحراء العربية التي كانت تقوم على التناقض والحروب بين القبائل.وكانت المعاني في قصيدة الهيجاء تذم الضعف والبخل واختلاط النسب لكن ألفاظ الهجاء لم تكن مقذعة...كان الهجاء

[1] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعون،(الهجاء في الشعر العربي)،ص08.

في الجاهلية تنديدا بالمعايب الشخصية للفرد أو احتقارا لجماعة معينة من الناس ثم تطور ليرتفع عن الأحقاد الشخصية ليطال مشكلات الحياة العامة...»[1].

للمديح معاني مأخوذة من طبيعة بيئة الإنسان العربي ومدى ما يفتخر به من القيم خاصة بهم، لذلك كانت المعاني التي يدور حولها هذا الغرض« مستمدة من بيئة العرب الصحراوية ومجتمعهم الذي يعتمد على الفروسية،فكان الشعراء يمدحون بالجودة والعزة والشجاعة والإباء والفتك بالأعداء وإكرام الضيف ورعاية حقوق الجار وصفاء النسب.أي أن المديح كان يهتم في المقام الأول يمدح القيم الإنسانية للمحافظة عليها وترسيخها في النفوس»[2].

والمديح باعتباره أسلوبا يحقق أهدافا عند ذوي الجاه فإن هذا المعنى الذي راح يأمل الشعراء في توصيله إلى الناس له غايات مدروسة استنبطها الشعراء وجعلوها حيلة حتى يتقربوا بها أكثر فأكثر من بلاط الملوك لذلك:«تطور فن المديح في الجاهلية وأصبح صناعة يبيعها الشعراء عند أعتاب الملوك والزعماء،وأدرك هؤلاء أثر الشعر في تحقيق أهدافهم فقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم المال،خاصة المناذرة والغساسنة ففتحوا تصورهم للشعراء الذين تنافسوا في مدحهم واستطالوا ترف العيش»[3].

تطاولت معاني المديح فوق ما كان متوقعاً منه فجعله الشعراء ذريعة يمتطون بها شفاعة الملوك فتنافسوا بذلك تحقيقا لأهدافهم وغاياتهم فتجرد المدح من محتواه الأصلي.

وإذا كان المديح قريب في معانيه مع عرض الفخر، أو أن نفس المعاني التي يقوم عليها المديح يقوم عليها الفخر كذلك وبالتالي.

---

[1] الموسوعة السابقة،ص08.

[2] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعون،المديح(في الشعر العربي)،مج،02،ص06.

[3] الموسوعة نفسها،ص07.

فالفخر له مضامين نتوخاه من خلال وقوفنا على أعتاب النصوص التي عبّر عنها الشعراء في هذا الغرض فله مضامين كثيرة تفهم من ثنايا المعاني فهو:« أول ما تغنى به الشاعر الجاهلي في فخره الشجاعة لأنها كانت السبيل الوحيد للحياة في تلك البيئة الخانقة.والشجاعة صبر وجلدٌ وإقدام،وهي تقتضي أن يكون العربي ناحل الجسم،قوي العضلات،خفيف الحركة،ذا عزيمة وحزم،لا يتردد ولا يتقاعس،ولا يشتكي»[1].

يقترن مضمون الفخر بالشجاعة وتقتضي الشجاعة أن يتحلى الشخص بعدة مواصفات وأعلاها الصبر والجلد والإقدام،وصاحب هذا يتميز بمواصفات خَلْقية حتى يتغلب على أعدائه ويكون ذا عزم وحزم ويتشجع بروح الإقدام ولا يتقاعس ولا يتأخر عن ميدان المعركة.

-مضمون العصبية القبلية:

العصبية القبلية: من حيث المضمون فهي تعكس معان ومبادئ لا تتوافق مع المبدأ الإنساني يقول إحسان عباس:«فإذا قلنا إنّ الشعر كان يخدم غاية اجتماعية في الجاهلية،كان لابد أن نقرّر أيضا أن تلك الغاية ليس من الضروري أن تخضع لمقاييس أخلاقية ثابتة-كان المبدأ القبلي حينئذ"أنصر أخاك ظالما أو مظلوما"وكان هذا أيضا هو الإحساس في الشعر.أما ما يسمونه القصائد "المفضليات"التي يتحدث فيها الشاعر عن فضائل أعدائه،فإنها على ما فيها من روح الفروسية الصادقة،ربما لم تتوفر دائما إلا في تبرير الهزيمة»[2].

الشعر يخدم غاية اجتماعية وقد تكون هذه الغاية مبنية لصالح قبيلة ولذلك اتخذت القبيلة شعارا هو أنصر أخاك ظالما أو مظلوم مما يؤكد أن المقاييس الأخلاقية غير ثابتة.

[1] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)ص141.

[2] د. إحسان عباس،فن الشعر،الجامعية الأمريكية دار صادر بيروت،دار الشروق عمان-الأردن،ط01،1996 ،ص142.

والرباط القبلي يضع حدودا تتماشى مع المثل العليا للقبيلة:«ومهما يكن اضطراب حال الشعر في الجاهلية فإن الرباط القبلي كان يجعل المقاييس الاجتماعية التي يخدمها الشعر محدودة بالمثل العليا لحياة القبيلة نفسها،فمهمة الشاعر أن يمجد الظلم والعدوان والحرب،إذا كان هذا مما يرضي مبادئ قبيلته وطبيعة حياتها،ولما انحاز الشعر إلى الناحية الفردية الخالصة في بعض مظاهر الجاهلية ظلّ من مهمّته أيضا أن يبرر النقائص الفردية في صاحبها،كالخوف والهرب في الحرب وغير ذلك»[1].

مضمون الأطلال:

للأطلال مضامين نستشفها من خلال ما تحمله للإنسان من ذكريات مضت ومضت معها أيام الشاعر الأطلال تعيد له شريط ماضيه الجميل.

فالبكاء على الأطلال له مضامين تعود على نفسية الشاعر«ولا يعني البكاء على الأطلال أنّ الشاعر يذرف الدموع حقيقة على ما تبقى من منزل الحبيب المقفر الخالي من كل مظاهر الأنس والحياة،وإنما هو بكاء يفيض بالحنين الشجي على التي سكنته وارتحلت عنه»[2].

و الوقوف على الأطلال هو موقف:«يتصل بما ترمز إليه هذه الأطلال،وهي ترمز إلى الأهل والأحباب الذين هجروها،وإلى الحياة التي انقضت وحل مكانها الفناء»[3].

إذا كان للأطلال دلالات ومعاني تحمل في عمقها مضامين عديدة، فإن الزمن أيضا يشكل رؤية عند هؤلاء الشعراء الذين انصرفوا إلى إخراج هذه الكوامن النفسية في قوالب شعرية، تبين مشاعر الشاعر الذي يفيء به الحال إلى جعل الزمن نقطة شعور تحيره وتجعله قلقا.

---

[1] المرجع السابق،ص142.

[2] د.زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،55،56.

[3] د.حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي،قضايا،وفنون،ونصوص،ص400.

مضمون الزمن:

ولذلك كان:«الزمن عدو الشاعر الجاهلي عامة،و عدو العاشق خصوصا.ليس عند العشاق زمن بالمعنى الذي يتعارف عليه النّاس.زمنهم هو لحظات هيامهم ولقائهم وحسب.لا يجري زمنهم متواصلا كالماء،بل يتجزأ قافزا كالفراشات"ليت الزمن يتوقف"-ذلك هو رجاء العاشق،ذلك هو جوهر كل شعر عظيم في الحب»[1].

كل غرض وكل فكرة توحي بمضمون معين يحيل إلى طبيعة وحتى الأصوات لها مضامين وللسجع مضمون يستمده من روح البيئة العربية ومن أصوات حيواناتها:«إن في جذر كلمة سجع ما يشير إلى التغريد والغناء.يقال:سجعت الحمامة،أي دعت وطربت في صوتها.وسجعت الناقة:مدّت حنينها على جهة واحدة.وسجع الحمامة،من هذا القبيل،هو كسجع الناقة:موالاة الصوت على طريق واحد.ومن هنا كان السجع يعني السير أو القصد المستوي على نسق واحد»[2].

إذن فكل شيءٍ في هذا الكون إلا ويرمز إلى مضمون ما،والإنسان العربي جُبِل على نظام واحد في تسيير حياته اليومية، في البحث عن سبل العيش، ومن الشقاء الذي يكابده يوما بعد يوم، كان ولا بد من أن يرفه عن نفسه حتى لا يشعر بهذا التعب المفروض عليه، ويقتصر تلك المسافات البعيدة بهذه الأصوات التي تعينه للوصول إلى ما يبحث عنه،ومن ذلك كانت الغنائية تعبير عاطفي تغذيه العوامل البيئية «والغناء كان من دأب العربي وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلته،تمشي به متشدة أو مرقلة،وهو على ظهرها يهتز هزات تبطئ وتسرع وتطول وتقصر،وكان الغناء من دأبه وهو يهجم في الحرب فيجري أو

[1] أدونيس،ديوان الشعر العربي،ص:24-25.

[2] أدونيس،الشعرية العربية ،دار الآداب،بيروت لبنان،ط01، ،1984،ص10.

يثب،ومن دأبه وهو يمتح الماء من البئر فيرتفع وينخفض،ومن دأبه وهو يرقص،ومن دأبه وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة وتعوزه التسلية،تنزل به النازلة فينفس عن نفسه بالغناء وتبسم له الحياة فيصور صورة في غناء وهو إذ يغني يتقطع صوته وفقا لحركات جسمه وهزات نفسه،وتتقطع كلماته ومقاطعه إلى أجزاء متزنة منسجمة،لأن صلة الغناء بالشعر من شأنها أن تحدث ذلك»[1].

ب/على مستوى الشكل:

-اللغة:

لغة الشاعر الجاهلي ليست لفظة عابرة ولكنها تعكس روح البيئة فهي:«...لغة انبثاق وتفجر،وليست لغة منطق أو ترابط سببي.إنها لغة وميض وبصيرة-امتدادٌ إنساني لسحر الطبيعة وأسرارها.في كل قصيدة عربية عظيمة،قصيدة ثانية هي اللغة.بهذه اللغة السحرية لا بلغة النحو والصرف آمن الشاعر العربي-هذا الإيمان حصيلة شعوره بأنّ العالم حوله يتفتت،ويتلاشى.هكذا يترك اللغة أن تجمع فتبني هذا العالم وتهدمه على هواها.الموجد المباشر الحقيقي،هو اللغة لا العالم.ومن هنا كانت اللغة في نظر الجاهلي سحرا خارقا،وفي نظر العربي عامة،عطية الله»[2].

-اللفظة:

اللفظة عند الشاعر الجاهلي تحمل أبعاداً تعكس روح البيئة الجاهلية:«فما كانت الألفاظ عند العربي مجرد أصوات يقذفها اللسان،وإنّما كانت وسائل حاسمة للتأثير في سامعيها وفي اجتذاب من يخاطب بها أو

[1]أحمد محمد الحوفي،الحياة العربية في الشعر الجاهلي،مكتبة النهضة المصرية،ط02،دت،ص137.

[2]أدونيس،ديوان الشعر العربي،ص15.

تغنى له.من أجل ذلك كان صانع هذه الأغاني شاعرا أي صاحب دراية وعلم.وكان له في رأيهم معارف سحرية خارقة للعادة وكانوا يجلون تلك الأغاني ويخشونها»[1].

الكلمة أو اللفظة لها وقع وتأثير في اجتذاب المخاطب وهي دائما تحمل روح الأعراف والتقاليد من جهة وروح البيئة العربية من جهة أخرى.

ومن أبرز السمات التي اتصفت بها اللفظة في الشعر الجاهلي أنها«كانت تمتاز بغرابة الألفاظ وجزالتها ومتانة التركيب وبلاغة الأداء والعناية بأبياتها فكثيرا ما كان الشاعر يقضي مدة طويلة وهو ينظم في قصيدته مثل زهير بن أبي سلمى الذي سميت قصائده بالحوليات لأنه كان يقضي على القصيدة حولا كاملا وهو ينظم ويعيد النظر فيها»[2].

وهناك ألفاظ خاصة استعملها الشعراء تدل على بيئتهم وحتى تسميات أوانيهم فكل لفظة تنفرد بمعنى معين فمثلا نجد شعراء المعلقات ميزوا بين مدلولات الألفاظ فكل كلمة تؤدي معناها في وضعها المناسب لها ومن ذلك «استعمل شعراء المعلقات العشر ألفاظا مضادة لألفاظ (الحلولو و الإقامة) وهي (احتمل، تحمّل، الاحتمال،المحتمل،رحل،ارتحل،ترحّل،الرحلة،الارتحال،التّرحال،التّرحل، المرتحل، الرّحيل، ظعن، أظعن،الظعن، المِظعن،استقلّ»[3].

ونذكر في هذا السياق بيت امرئ القيس الذي يقول فيه:

كأني غَداةَ البينِ يوم تحمّلوا لدى سَمُراتِ الحيّ ناقف حنظلِ[4].

[1]أ.طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب(من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)ص15.

[2]د.راضي نواصره،أثر فتح مكة في أدب صدر الإسلام،357.

[3]د.ندى عبد الرحمن يوسف الشايع،معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر(تأصيلا ودلالة وصرفا)مكتبة لبنان ناشرون،بيروت لبنان،ط01 ،1993م،ص124.

[4]امرؤ القيس،ديوانه، ص23.

-الخيال:

الشاعر الجاهلي محدود الخيال وهذا يعود إلى المحسوسية فهو يصور المحسوس لا المجرد ولذلك كان الخيال عنده ضيق يقول "حنا الفاخوري"في هذا المفهوم:«الخيال اللفظي:والجاهليّ إلى ذلك كلّه ضيق نطاق الخيال والتخيّل بسبب اشتداد المحسوسيّة عنده وسيطرة المادية على مجمل كيانه.وهو بعيد عن الاستقرار الذي يفسح المجال للتأمل الطويل العميق،ومن ثمّ تراه يعمد إلى الصور القريبة التي تتعقب المحسوس في جزئياته،وتراه يكثّف مادة تشبيهه وتصويره،فيتحوّل عنده الخيال إلى تراكم ألفاظ وتشبيهات أكثر مما ينطلق في عالم الخلق التصويريّ والابتكار الشخصي البعيد المدى.ولهذا تجد صورة عنيفة في أحيان كثيرة؛وتراه يكثر من الاعتماد على المادة الصوتية في غرابة اللفظ ورنة الوزن والقافية»[1].

الإيقاع:

الإيقاعية في الشعر الجاهلي:«بدأ الإيقاع في الجاهلية،سجعا-كما يرجح معظم الباحثين.فالسجع هو الشكل الأول للشفوية الشعرية الجاهلية،أي للكلام الشعري المستوي على نسق واحد.وتلاه الرجز الذي كان يقال إما بشطر واحد كالسجع،لكن بوزن ذي وحدات إيقاعية منتظمة،وإما بشطرين-والقصيد هو اكتمال التطور الإيقاعي،وهو شطران متوازنان،موزنان،حلاّ محل سجعتين متوازنتين»[2].

والسجع له ثلاثة أشكال:«الأول:يكون فيه الجزآن متوازنين معا متعادلين لا يزيد أحدهما عن الآخر،مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه،مثال:سنة جردت،وحال جهدت،وأيد جمدت؛فالأجزاء هنا متساوية،والفواصل على حرف واحد.ويطلق على هذا الشكل،اسم:الازدواج.

[1] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم،ص162.
[2] أدونيس،الشعرية العربية ،ص10.

الثاني:تكون فيه ألفاظ الأجزاء المزدوجة مسجوعة،فيكون الكلام كله سجعا...

الثالث:تكون فيه الأجزاء متعادلة،وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج،إذا لم يكن أن تكون من جنس واحد»[1].

يقول حنا الفاخوري:«...كان الجاهليون يعدونه (الشاعر)من طبقة الموحى إليهم.وهذا كله هيّأه لأن يكون خطيب القوم ولسانهم في السّراء والضرّاء وهذا كلّه جعله على منبر الإقناع بالبلاغة الكلامية واللهجة العالية التي تحاول استثارة العواطف وتطلب انقياد النفوس والقلوب.ولهذا نراه يرفع الصوت مدويا،ويعمد إلى أساليب الخطباء من تهديد ووعيد،من حضّ أو كفّ،من قسم وتأكيد،من إبدال الأنا المفردة بالنحن المجموعة،من الانتقال السريع المتوثّب من الخبر إلى الإنشاء إلى شتى الأساليب الخطابية،من الاقتضاب اللمّاح والجزم الفاضل»[2].

القافية:

الشعر الجاهلي يتميز بكونه شعراً مقفى وموزوناً فالقافية معيارٌ آخر أو هي خاصية مهمة تمثل نمط القصيدة«ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهورا بيّنا،ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها،فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف.ومثلها التصريع في مطالع القصائد وما كان يعمد إليه الشعراء أحيانا من تقطيع صوتي لأبياتهم»[3].

واستُدِل بيت امرؤ القيس الذي يقول فيه:

مكرّ،مفرّ،مقبل،مدبر،معا كجلمود صخر حطّه السيل من عل

[1]المرجع السابق،ص:10-11.

[2]حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)ص162.

[3]شوقي ضيف،سلسلة تاريخ الأدب العربي،العصر الجاهلي،ج01،دار المعارف، ط24، ص194.

واستدل في نفس الوقت ببيت الشاعر لبيد القائل:

عفت الديار محلّها فمقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها[1].

القافية خاصية مهمة في دراسة الشعر الجاهلي لأنها تعكس روح البيئة العربية فلا«بد كذلك من أن نشير إلى أن القافية في القصيدة هي:في المقام الأول:خاصية إنشادية-موسيقية-فمن شروطها ألا توضع لذاتها،وإنّما يجب أن تكون جزءًا عضويا في سياق البيت،تتفق مع وزنه ومعناه-وهي إذن جوهرية وليست زيادة أو ملء فراغ»[2].

وكذلك هي:«...مقاطع صوتية-إيقاعية،وليست مجرد مجموعة من الحروف والحركات.ومن هنا يجب أن تتشابه حروفها المتكررة،وأن يعنى خصوصا،بالحركة الأخيرة فيها،لأنها حركة الترنّم هكذا تعطي القافية للبيت،ومن ثم للقصيد كله،بعدا من التناسق والتماثل،يضفي عليه طابع الانتظام النفسي والموسيقي والزمني»[3].

القافية تساهم في خلْقِ جو التناسق والانسجام في بناء القصيد الشعري،وهي لمسة جمالية فنية.

[1] ينظر:المرجع السابق،ص194.

[2] أدونيس،الشعرية العربية ،ص13.

[3] المرجع نفسه،ص13.

الفصل الثاني

توطئة:

انطفأت شعلة الجاهلية،وحلت شمس الإسلام على البشرية،إنه التاريخ يبدأ صفحة أخرى للإنسانية،إنه عصر صدر الإسلام بزغ فيه نور الدعوة وانتشرت أضواؤه في رحاب واسعة،من أرجاء هذه المعمورة جاء الإسلام حاملا رسالة جديدة؛ قوامها التوحيد،وعبادة الله وحده لا شريك له،ومحو وثنية الجاهلية.

بدأت الحياة فيه تتبدل وتتغير في المظهر والجوهر، متجاوزة كل القيم التي تحافي الإسلام،وفتحت أفاقا جديدة، تشكلت من خلالها رؤية جديدة للفكر الإنساني، وخصوصا فيما يتعلق بالمعتقد،والعبادة، هي مفاهيم أضفت على الحياة تغييرا بدأ يظهر رويدا رويدا في سلوكات الناس؛ فالدين الجديد دعا إلى ضرورة ضبط العقيدة الصحيحة السليمة الخالية من الشوائب الجاهلية التي تتعارض مع المبادئ الجديدة.

كان للإسلام فضل كبير في تقويم السلوك الإنساني،بما يتماشى مع القيم الإنسانية،والفضائل الرفيعة،ومن أهم مضامين هذه الرسالة الدعوة إلى ضرورة بث وزرع القيم النبيلة، في أوساط المجتمعات،فقد أثر الإسلام بشكل واضح في تغيير ملامح الحياة.

وقبل الحديث عن مضامين الشعر في صدر الإسلام،يجب أن نعلم أن عصر صدر الإسلام،هو عصر النبوة، أو الدعوة المحمدية،لذلك كان للشعر وجهة نظر خاصة؛فالشعر كان انتصاراً حقيقياً لتعاليم مثلى مستقاة من نبع القرآن وفيض السنّة.

وليس في ذلك شك أن الشعر من زمن إلى زمن تتغير ملامحه،باعتبار الخصوصية التي يتميز بها ذلك العصر فقد يتفق في بعض النقاط ويختلف في الأخرى؛فكل عصر إلا وله خصائصه ومميزاته، ومن ذلك كان عصر صدر الإسلام مفعما بكثير من القيم الجديدة،التي لم تكن من ذي قبل.

ومما لا ريب فيه أنّ الحياة عمّها الإسلام فانقادت مطواعة،مستجيبة لأمر الله،فلان الشعر وتغيّر حاله، من شعر تكسوه السليقة والفطرة، إلى شعر تلفه رسالة إلهية، فسقي بكلام منزل مقدس، لا يأتيه الباطل، ولا تشوبه الأكاذيب.

المبحث الأول:موضوعات الشعر في صدر الإسلام.

تمحورت موضوعات شعر صدر الإسلام تحت راية الدعوة، وباب الجهاد، ومناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونشر القيم النبيلة، ونبذ كل ما يمس ويخل بكرامة الإنسان، وما يعارض القيم الرفيعة؛فالشعر أضحى وسيلة من وسائل الدفاع والإتباع لخير الأنام.

أولا:الموضوعات التي التف حولها الشعراء.

أ/شعر الدعوة:

إنّ شعراء هذا الزمن هم شعراء حملوا على أكتافهم رسالة تبليغية إلى الناس، وكان منطلق هذه الأخيرة الإتباع والامتثال لأوامر الله«ثمّ إن شعراء الإسلام قد استبدلوا تلك الجوانب التي تركوها أو زهدوا فيها بجوانب جديدة لم تكن في الشعر السابق،وهي جوانب الدعوة وجوانب الأمل في خير الآخرة،وجوانب حب لله ورسوله،فالجانب الدنيوي من الشعر قد يكون مشتركا بين عهدين،لكن جوانب الدعوة وجوانب الحب الله والحب لرسوله والحنين إلى لقاء الله والحذر من عقاب الآخرة أبواب جديدة في الشعر الإسلامي،حلت محل الإباحية والشهوانية وحب المتاع الزائل والهوى السافل التي تركها وزهد فيها شعراء الإسلام»[1].

الشعر في صدر الإسلام جاء داعيا إلى تطبيق تعاليم جديدة، هي الامتثال لأوامر الله،ورسوله حبا وطاعة،فلم يكن الشاعر في هذه المرحلة يهوى ما تهواه نفسه،بقدر ما كان ينظر إلى الأشياء بمرآة الآخرة ذلك هو طريق الشعراء الذين حملوا أعباء هذه الرسالة، ففتحوا أبوابا جديدة للشعر، هي التنبيه والتذكر لما هو آت ليوم لا ينفع فيه مال،ولا بنون إنه هدف نبيل سعى الشاعر إلى إدراكه في مقطوعاته التي ينظر إليها

[1] محمد الرابع الحسني النّدوي،الأدب الإسلامي وصلته بالحياة،مؤسسة الرسالة،ط01، 1415هـ/1985م،ص81.

على أنها غاية منشودة والشاعر هنا زهد في دنياه مقابل الفوز بجنة الآخرة،وفي هذا السياق يقول الشاعر النابغة الجعدي منافحا عن الروح الإسلامية دعوة وعقيدة،ومظهراً هذا الشوق الشديد لعالم الآخرة:

بلغنا السّماءَ مجدا وسؤددا وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا[1].

بدأ الشعراء في هذه المرحلة التي تمثل صفحة جديدة في تاريخ البشرية، ينحون نحو راية الإسلام ،وقد كان للقرآن الكريم أثر كبير، في تهذيب«...الشعر فإنه تأثر بالمثالية الروحية الجديدة وخاصة حين كان شعراء المدينة يناضلون شعراء مكة قبل فتحها ويترامون معهم بسهام الهجاء على نحو ما هو معروف عن حسان بن ثابت،فقد كان يستشعر الدين الجديد ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته...ويلقانا من حين إلى حين في هذه الفترة،فترة صدر الإسلام،شعر فيه خشوع وتبتل لله،أو فيه مثالية الإسلام على أن من الشعراء من ظل يهجو على طريقة أسلافه ويقذف الناس بحجارة الهجاء المقذعة»[2].

ومن الأمور التي تدعو إليها الرسالة الجديدة هي النصح والالتزام بالمبادئ الشرعية فقد«احتاجت أوامر الدين ونواهيه إلى الحث على الالتزام بها وتنفيذها فنشأ لون جديد من الشعر هو شعر الوعظ والإرشاد،وقد حاول شعراء صدر الإسلام الإفادة من فنهم الشعري لتحقيق هذه الغاية النبيلة التي دعا إليها القرآن»[3].

الإسلام دين النصيحة، والشعراء وجدوا في القرآن ما يوفر لهم القول فيه،فالوعظ، والإرشاد حثّت عليهما الشريعة الإسلامية،وهذا الأمر لم يسبق له مثيل في العهد الجاهلي.

والشعر في صدر الإسلام تماشى مع مواقف، ومبادئ لها غايات إنسانية كثيرة فهو:«وسيلة بناء للمجتمع الإسلامي،ودعوة للأخلاق الفاضلة لا وسيلة تقويض وهدم،ولم يقف الإسلام من الشعر موقف

[1] يوسف عطا الطريفي،شعراء العرب(عصر صدر الإسلام)،دار الأهلية لنشر والتوزيع،عمان-الأردن،ط02، 2009م،ص10.

[2] د.شوقي ضيف،فنون الأدب العربي الفن التعليمي(النقد)ص:28-29.

[3] د.سامي مكي الغاني،الإسلام والشعر(عالم المعرفة)، دط،الكويت،1996م ص69.

الجمود الذي يؤدي إلى خمود جذوته،وإنما طوّر وجدد في معاني الشعر وموضوعاته وأسلوبه وصياغته،ولم يعد فيه مجال للمعاني الساقطة التي تشيع عواطف البعض،وإنما هي معاني تتكئ على الالتزام بالعقيدة والدين والدعوة إلى الفضائل،وبهذا أشاعت الحب والتآخي بين الناس»[1].

تحرى الشعراء المعاني،والموضوعات التي لا تخدم الدعوة، واحتذوا في هذه الفترة حذو القيم السامية والرفيعة التي يَنص عليها القرآن الكريم،فجعلوا بذلك الشعر وسيلة من وسائل بناء مجتمع قويم، تحرسه الفضائل والقيم المثلى، فابتعدوا عن كل ما يسيء للأخلاق فكانوا حرصين على دعوة الناس لعبادة الله وحده لا شريك له،وكان هذا هو الأهم في تبليغ الرسالة السماوية القائمة على توحيد الله وحده الخالق حيث يقول النابغة الجعدي في هذا المجال:

الحمد الله لا شريك له من لم يقلها فنفسَه ظلما

المولج الليل في النهار وفي اللّيل نهارا يفرّج الظلما

الخافض الرافع السّماء على الأرض ولم يبْنِ تحتها دعِما

من نطفة قدَّها مقدِّرها يخلق منها الأبشار والنّسما[2].

واضح من الأبيات أن الشاعر بدأ يحث الناس على عبادة الله، وحده لا شريك له، فهي قوام هذه الرسالة؛فالشاعر متشبع بعقيدة متينة لا تشوبها النقائص،ولا الخرافات.

يقول ابن عابس الكندي داعيا عشيرته إلى السلم وإتباع طريق الهدى:

ألا أبلغ أبَا بكر رسولا وخصّ بها جميع المُسلِمينَا

[1] د.مصطفى عبد الرحمن إبراهيم،في النقد الأدبي عند العرب،ص66.

[2] د.حسين الحاج حسن،أدب العرب في صدر الإسلام،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط01، 1412هـ/1992م،ص160.

فلستُ مجاوراً أبداً قبيلا بما قال الرسول مكذبينا

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرينا

فقلت لهم أنيبوا يا قومي إلى ما قد أناب المسلمون[1].

إذن الشعراء في هذه فترة كان شعرهم منافحا، ومدافعا عن الدعوة الإسلامية، التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى هذه الأمة،فكان الشعر بطاقة دعوية ودعوة حق لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم«وقد كان له صلى الله عليه وسلم شعراء ينافحون عنه،ويتجارون مع شعراء القبائل الأحاديث والأفانين،ولم يقمهم هو ولكن أقامتهم العادة العربية التي جعلت قولهم أشد على بعض العرب من نضج النبل،لأنه عليه الصلاة والسلام لم يؤمر بالفخر،ولم يبعث للهجاء،وقد ترك عادة العرب ونخوة الجاهلية في مثل ذلك،ولكنهم لم يتركوها في أول العهد بالرسالة،فكانوا يهيجون عليه شعراءهم،ويحرضون خطباءهم،ويقصدونه بالأقاويل يستطيلون بها عليه،فإذا أتاه الوفد منهم:كبني تميم حين جاءوا بشاعرهم الأقرع بن حابس وخطيبهم عطارد بن حاجب،ينادونه من وراء الحجرات:يا محمد،اخرج إلينا نفاخرك و نشاعرك،فإن مدحنا زين وذمنا شين،رماهم بمثل خطيبه ثابت بن قيس شماس-أو بأحد شعرائه عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ...الشعراء والخطباء،وأبلغوا في الرد عليهم،تأييدا من الله في المنافحة عن نبيه،وردّا لكيدهم الذي يكيدون»[2].

الرسول صلى الله عليه وسلم بُعِث متمما لمكارم الأخلاق، وبُعِث لتبليغ الرسالة الإسلامية، ولكن في كل عصر وفي كل زمان إلا ونجد من يناقض هذه الرسالة الشريفة، قولا أو فعلا، وهذا ما حدث له صلى

[1] يوسف عطا الطريفي،شعراء العرب(عصر صدر الإسلام)،ص27.

[2] مصطفى صادق الرافعي،تاريخ آداب العرب،ج02،دار الكتاب العربي،بيروت-لبنان، ط05،1420هـ/1999م،ص313.

الله عليه وسلم مع المشركين الذين كانوا معاندين له، ولم تهدأ ثائرتهم، حتى قام فريق آخر ينتمي إلى مدرسة الدعوة الإسلامية الجديدة،وهؤلاء هم شعراء نافحوا عنه صلى الله عليه وسلم، فكان قولهم أشد وقعا، وتأثيرا من السلاح.

ومن ثمة قامت رسالة هذا الدين الجديد على دعوة الحق،ونصرة المظلوم،ومحاربة الذين يؤذون الرسول صلى الله عليه وسلم،فنهض الصحابة لرشق من يعترض طريق الدعوة، فحاربوا بأشعارهم أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويعد حسان بن ثابت في طليعة هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن الدعوة،ونصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لأجل ذلك سمي بشاعر الإسلام وشاعر الرسول الكريم« فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب راميا لهم جميعا بسهام مصمية.وقصته مع الحارث بن عوف المري حين قتل في جواره داع من دعاة الرسول مشهورة»[1].

يقول فيه حسان بن ثابت وفي قومه:

يا حار من يغدر بذمه جاره منكم فإنّ محمداً لم يغدرْ

أن تغدروا فالغدر منكم شيمة والغدر ينبت في أصول السّخبَر

وأمانة المريّ حيث لقيته مثل الزجاجة صدعها لم يجبر[2].

[1] شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)ج02،دار المعارف،نيل-القاهرة ،ط11،دت،ص79.

[2] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،شرحه وكتب هوامشه وقدمه،أ.عبد.أ مهنّا،دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،ط02،1414هـ/1994م،ص13.

فاضت دموع الحارث من شدة هذا الهجاء اللاذع، واستجار بالرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه أن يكف عنه لسان حسان[1].

وهو ما يبين الشفقة والرحمة التي يتصف محمد صلى الله عليه وسلم، كيف لا وهو الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، فالحارث يستأنس به يقينا منه بأن الرسول لا يظلم عنده أحدٌ.

وقد وصفه فريق من الشعراء الذين انظموا في لواء رسالته بأحسن الصفات، وأحسن الخصال، فهاهو كعب بن مالك يرتجل شعرا يذكر الناس بمناقبه فهو شهاب يتبعه نورٌ مضيء كضياء القمر حيث يقول شاعر العقيدة الإسلامية:

فينا الرسولُ شهابٌ ثمّ يتبَعُهُ نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشّهبِ

بدا لنا فاتّبعناهُ نُصَدِّقُه وكذّبوه فكنَّا أسعدَ العَربِ[2].

لقد طالت سهام الظلم والعدوان رسولَ صلى الله عليه وسلم،وأمر الشعراء والصحابة بأن ينظموا في جناح الدعوة،وقد جاء في الأخبار أنه«عندما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة واشتدّ هجاء عبد الله الزبعري،وضرار بن الخطاب،وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب،وعمرو بن العاص للرسول وصحبه وكانوا وقتذاك من المشركين قال قائل من المسلمين لعلي بن أبي طالب:"اهج عنا القوم الذين يهجوننا"،فقال:"إنّ عليا ليس عنده ما يراد في ذلك منه"،ثم قال صلوات الله وسلامه عليه:"ما يمنع القوم الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟"فينبري حسان قائلا:"إني لها يا رسول الله".فقال له الرسول:"كيف تهجوهم وأنا منهم؟"فقال:"إني أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين"،فيقول له الرسول

[1] شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)ص79.

[2] كعب بن مالك الأنصاري،ديوانه،تحقيق وشرح:مجيد طراد،دار صادر بيروت،دط،دت،ص12.

صلى الله عليه وسلم:"اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم،ثم اهجهم وجبريل معك"...»[1].

إنَّ الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون بحمل السلاح،وجمع العدة فقط، وإنما هو أيضا موقف يتخذه الشعراء وهو الكلمة، التي لها أثر كبير ،كيف لا والشعر سيف حاد يجرح القلوب ، فله تأثير قوي في دفع منابت الظلم.

إنَّ الشاعر مجاهد بشعره، والكلمة عنده سيف صارم يرعب العدو ويحرق أعصابه،و يقطع ألسنة المعادين إذ:«كان المهاجرون والأنصار يعدون حسانا الشاعر الذي يحمي أعراض المسلمين،يبعثون في طلبه حين تفد الوفود،ويفزعون إليه حين تأتيهم القوارص؛فيبلغ من حاجتهم مالا يبلغه صاحباه.والكلام كثير في أن النّبي لما قدم المدينة تناولته قريش بالهجاء،وهجوا الأنصار معه،وأن عبد الله بن رواحة ردّ عليهم فلم يصنع شيئا،وأن كعب بن مالك لم يشف النفس،وإنما الذي صنع وشفى،وصبّ على قريش من لسانه شآبيب شر هو حسان،والكلام كثير في استماع النبي لحسان،وفي إيثار النبي لحسان،وفي أن المسلمين كانوا يعتمدون اعتمادا حقيقيا على حسان في هذا الضرب من النضال؛ لم ذلك؟لأنهم كانوا يرون الملكة الشعرية في حسان أنضج منها في سواه؛لأنهم كانوا يرون معانيه من الأسلحة الماضية التي تجزع منها قريش»[2].

الدفاع عن أعراض المسلمين يتطلب هو الآخر ألسنة حادة تردع الخصوم، ففضل المهاجرون والأنصار "حسان بن ثابت" على غرار الشعراء كونه يملك لسانا صارما يشفي غليلهم.

[1] د.يوسف شحدة الكحلوت،محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي،ج01،دط،1430هـ/2009م،ص25.

[2] أ.طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب(من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع هجري)،ص42.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يستحسن شعر الشعراء الذين يدافعون عن العقيدة،ويحاربون مظاهر الشرك«وما أثر عن"الرسول صلى الله عليه وسلم"من تشجيع حسّان بن ثابت للرد على شعراء المشركين،ومن سماعه للشعر والشعراء واستحسانه لما يقولون دليل على إباحته لهم نظم الشعر،بل إنه كان يثني على شعراء الإسلام،ويقدر دورهم في محاربة المشركين،ويخاطبهم قائلا:"اهجوا بالشعر،إنّ المؤمن يجاهد بنفسه وماله،"والذي نفس محمد بيده كأنما تنضحونهم بالنبل"...»[1].[مسند أحمد 460/3]

ب/شعر الغزوات:

بعد ظهور الإسلام قامت صراعات حادة بين المؤيدين للرسالة وبين الرافضين لها، وفي خضم هذا الصراع الذي شهدته الجزيرة العربية أيام الدعوة الإسلامية، شهد المسلمون عدة غزوات، وتمخض عن هذه الغزوات أشعار كثيرة حيث يقول عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة:

جلبنا الخيلَ من أجاءٍ وفُرُغٍ تغَرُّ من الحشيش لها العكومُ

حذوناها من الصوّان سبتا أزلّ كأنَّ صفحته أديمُ

أقامت ليلتين على معانٍ فأعقبَ بعد فترتها جمومُ[2].

إن الإسلام دين التسامح والأخوة والرحمة والعفو ذلك أنه يعلن بكل وضوح راية الصلح وراية الدعوة من جهة أخرى؛فكان حريصا كل الحرص في تقوية نفوذه عبر أصقاع العالم فتوسعت رقعته مما يؤكد على أن خريطة الإسلام تبحث دوما إلى المزيد من الانفتاح على العالم الآخر فالشعر الإسلامي متابع ومعالج لكثير من الأحداث والقضايا فكان منه« الشعر الذي كان يتابع الغزوات والسرايا ويسجل أحداثها حيث كان

[1] د.محمد بن علي الحضرمي،ود.عبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيشي،في النص الإسلامي والأموي(دراسة تحليلية)مؤسسة المختار القاهرة،دار المعالم الثقافية المملكة العربية السعودية،ط01، 1419هـ/1998م،ص06.

[2] د.عمر فرّوخ،تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)،ج01،دار العلم للملايين، ط04، 1981 ،ص262.

الشعراء ينظمون أناشيد حماسية يتغنون بها بانتصاراتهم ويعرضون شجاعتهم وخير مثال ما قيل في معركة القادسية وما كتبه الشاعران أبو محجن الثقفي وعمرو بن معبد يكرب الزبيدي»[1].

وكل هذه العوامل ساعدت في إذكاء جذوة المعاني الجديدة«فالجهاد في سبيل الله والفتوحات الإسلامية أكثر الروافد التي أمدت الشعر الإسلامي بالمعاني الجديدة والأفكار البديعة والأغراض الطريفة»[2].

نمَّت الفتوحات الإسلامية والجهاد قريحة الشعراء في تحوير المعاني الجديدة التي تناسب محتوى الرسالة «وقد كانت الأحداث الكبرى التي مكنت للدعوة ونشر الدين،أهم عامل لازدهار الشعر في عصر النبوة،فالفترة الواقعة بين الهجرة إلى حنين والطائف،كانت فترة ازدهار الشعر...لأن الخصومة كانت قائمة على حدتها وشدتها.وإبان هذه الأحداث ظهر الطابع الديني في شعر الشعراء المسلمين...ولذلك فعلى الدارس أن يتتبع أثر الدين في الشعر الذي قيل في الأحداث الكبرى بخاصة،مقارنا ذلك الأثر بما جاء في كتاب الله العزيز من تصوير للمعارك والغزوات ومن توجيه المسلمين»[3].

وتمخض عن هذه الغزوات أشعارٌ كثيرة مؤيدة للروح الجهاد والدعوة إلى رفع الهمم والتغني ببطولات المسلمين ومدى إصابتهم في مقارعة الأعداء، ونتيجة لذلك ظهر«الشعر الذي قيل في مدح أبطال المسلمين وما قدموه من بلاء في هذه الغزوات والسرايا»[4].

[1] د.صباح نوري المرزوك،الأدب الإسلامي ، دار الصفاء-عمان،ط01، 1435 هـ/2014م،ص139.

[2] د.سامي مكي العاني،الإسلام والشعر(عالم المعرفة)،ص19.

[3] د.يحي وهيب الجبوري،شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،عمان-الأردن،ط01، 2014م/2015م ص226.

[4] د.صباح نوري المرزوك،الأدب الإسلامي، ص139.

يقف الشعراء الإسلاميون إلى جنب من أصيبوا في هذه الغزوات العظيمة، وفيها يمدحون، ويشيدون بخصال من كانت لهم طاقات بدنية في التصدي إلى مقارعة المشركين، حيث وردت أشعار كثيرة تصف شجاعة هؤلاء المسلمين، الذين انتصروا لدين الله ورثاء من استشهدوا من المسلمين في هذه الغزوات.

ومن ذلك ما رثاه حسان بن ثابت لأهل مؤتة قائلا:

عَيْنِ جُودي بدَمْعِكِ المنْزُورِ واذْكُرِي في الرَّخاء أهلَ القبورِ

واذْكُرِ مؤتةً وما كان فيها يومَ ولَّوا في وقعةِ التَّغْوِيرِ

حينَ ولّوا وغادرُوا ثمَّ زيداً نِعْمَ مأوىَ الضَّريكِ والمأسُورِ[1].

كثيرة هي الأشعار التي صورت لنا الغزوات وكان من وراء ذلك شعراء ساهموا في«تحريض المؤمنين على الجهاد،واستنهاض هممهم،وإلهاب جذوة الحماسة في نفوسهم.فعندما تضعضعت قوة المسلمين يوم حنين انتدب بجير بن زهير بن أبي سلمى نفسه ليحث النّاس على الصبر والثبات،مذكرا إياهم ببيعتهم للرّسول الكريم،وتأييد الله لهم»[2].

تحريض المؤمنين على الجهاد هي همة عالية يتصف الشعراء الذين حملوا لواء الدعوة بحق، حتى في حالة الانهزام لا يبال الشاعر، بل يجهز نفسه للمعركة القادمة، وغزوة حنين هي من الغزوات التي انهزم فيها المسلمون على قريش،ولكن هذا الانهزام كان تجربة أخرى للنجاح في الغزوات اللاحقة.

[1] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،دط،وزارة الثقافة،الجزائر العاصمة،2007،ص102.

[2] د.عادل جابر صالح محمد،د.شفيق محمد الرقب،تاريخ الأدب العربي القديم،دار الصفاء للنشر والتوزيع،عمان-الأردن،ط01،1431هـ/2010م،ص36.

ما نلاحظه هنا أن المسلمين في هذه الغزوة تراجعت قوتهم، وانهزموا ولكن الشعر في هذه الفترة رافق الأحداث في حالة النصر، أو حالة الانهزام، ويعد الشاعر "بجير" في طليعة الشعراء الذين شاهدوا هذه الأحداث، والفتوحات، والغزوات، فكان شاعر هذه الأحداث، وهو القائل:

أينَ الّذين هُمُ أجابوا ربَّهمْ يوم العُرَيضِ وبيعة الرَّضوانِ

واللهُ أكرمنا وأظهرَ دينَنَا وأعزَّنا بعبادةِ الرّحمنِ

واللهُ أهلكهم وفرّقَ جمعهمْ وأذلّهمْ بعبادةِ الشَّيطانِ[1].

ج/شعر الفتوح:

الشعر في صدر الإسلام رافق أحداثا،و وقائع كثيرة، فكان مسجلا هذه القضايا الكبرى التي صحبت ظهور الدعوة، ولعل من أهم الأحداث التي شهدتها ساحة الشعر في هذه المرحلة الفتوحات، ولعل أهم الفتوحات في هذا الزمن هو فتح مكة.

فكان "بجير" من الشعراء الذين أنعم الله عليهم لينظموا في صفوف المجاهدين فشهد الفتوحات الإسلامية وروى له ابن إسحاق قطعة شعرية في فتح مكة يفتخر فيها بقومه ومدى قدرتهم على المواجهة والثبات عند خطوط الدفاع للإسلام وكذا طاعتهم لرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول فيها:

صبحناهم بسبع من سليم وألف من بني عثمان واف

نطا أكتافهم ضرباً وطعناً ورشقاً بالمريشة اللطاف

[1]المرجع السابق،ص36.

ترى بين الصفوف لها حفيفاً كما أنصاع الفراق من الرصاف[1].

د/ شعر النضال:هو جزء من شعر الفتوحات، وفيه نلمس روح ضرورة الدعوة إلى تأييد الرسالة الإسلامية، بحيث أن الشاعر هنا يرد على المشركين الذين يؤذون الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسلمين.

فقد ساهم هذا النوع من الشعر في تقوية صفوف المسلمين فهو«أول ما يعترضنا في الشعر الإسلامي هو ذلك الشعر الذي رافق ظهور الإسلام وكان نصيرا أو تعبيرا.فقد قام إذ ذاك عدد من الشعراء من أمثال كعب بن زهير...وحسان بن ثابت...وكعب بن مالك وغيرهم ممن عملوا على مناصرة الدعوة،ومدح الأنصار،وإعلاء شأن الرسول (صلى الله عليه وسلم)،والرد على شعراء المشركين الذين هجَوْا محمدا والأنصار والمهاجرين،من أمثال عبد الله بن الزّبعري،وضرار بن الخطاب الفهري،والحارث بن هشام بن المغيرة،وأبي سفيان بن حرب.وقد سلك هؤلاء الشعراء جميعا مسلك الجاهليين في المدح والوصف بالحماسة والشجاعة،ثم في الهجاء والتفاخر والتنافر»[2].

كلّ ما سبق ذكره يعد من الموضوعات الكبرى، وهي متمثلة في الوقائع، والأحداث التي جرت أثناء فترة صدر الإسلام، وبقي معنا في هذه الدراسة أن نشير إلى بعض الموضوعات التي ليست من القضايا الكبرى، ولكنها موضوعات مهمة في دراسة الشعر في صدر الإسلام في هذه الآونة وهي:شعر المدح للرسول صلى الله عليه وسلم،وشعر المراثي،وشعر الأهاجي.

هـ/ شعر المدح: وهذا النوع كان خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم فقد مدحه حسان بن ثابت في مواطن عديدة وفيها يبرز خصاله صلى الله عليه وسلم وشيمه حيث يقول:

[1] ينظر:د.يحي وهيب الجبوري،شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه،ص207.

[2] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي،(الأدب القديم)ص389.

نبيٌّ يرى مالا يرى النّاس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجدٍ

وإن قال في كل يومٍ مقالةَ غائبٍ فتصديقُها في اليومِ أو في ضُحى الغدِ[1].

و/شعر الأهاجي:وهو الشعر الذي نشأ بين طائفتين من الشعراء طائفة الشعراء المسلمين وطائفة الشعراء المشركين فأصبح الشعر في هذه الفترة أداة قوية في الرد على القبائل التي كانت لها مواقف معارضة للإسلام وكان هذا النوع من الشعر« يدور بين شعراء المسلمين في يثرب وشعراء المشركين في مكة ويمكن أن نضيف إليه الشعر الذي قاله بعض شعراء المسلمين في هجاء بعض القبائل التي كانت لها مواقف ضد الإسلام والمسلمين»[2].

يعد شعر الأهاجي سجالا بين المؤيدين للرسالة، وبين المعارضين لها، ويختلط هذا النوع من الشعر بالشعر الهجاء الذي ينشأ بين القبائل.

ز/شعر المراثي:إنّ هذا النوع من الشعر كان تصويرا وتعبيرا عن المسلمين الذين قتلوا في ميدان المعركة وصحب هذا الضرب أيضا المحنة التي حلت بالمسلمين ألا وهي وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فقد رثاه "حسان بن ثابت"وقد أبدع الشعراء في مثل هذه القضايا و« نظمت قصائد كثيرة في رثاء قتلى المسلمين،وعلى رأس هذه المراثي،قول حسان يرثي الرسول صلى الله عليه وسلم حين انتقل إلى الرفيق الأعلى،فكانت مرثيته من أرق ما قالت العرب في عصورها فقد بكاه بكاءً حاراً»[3].

حيث رثى "حسان بن ثابت" الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:

[1] أدونيس،ديوان الشعر العربي،مج01،ص230.

[2] د.صباح نوري المرزوك،الأدب الإسلامي، ،ص139

[3] يوسف عطا الطريفي،شعراء العرب(عصر صدر الإسلام)،ص17.

ما بال عيني لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد[1].

ما يمكن أن نؤكد عليه من خلال النصوص التي أوردناها سابقا، أنّ هذه النصوص بينت لنا الموضوعات التي نظّم فيها الشعراء أشعارهم، فقد صاغها أصحابها من تعاليم الدين الجديد.

وباعتبار هذه الدراسة تتوخى البحث عن طبيعة التحولات التي شهدها القصيد الشعري خلال عصر صدر الإسلام، فالشعر لم يبق على حاله، بل تغيرت فيه كثير من المواضيع على مستوى الموضوعات والأغراض والخصائص وحتى ظهور بعض المواضيع والأغراض والخصائص التي لم تكن من ذي قبل.

ثانيا:الموضوعات التي هجرها شعراء صدر الإسلام.

لازم ظهور الإسلام تغيرات جوهرية طالت تلك القيم الجاهلية التي رست في نفوس الجاهليين «وحين انتصر الإسلام،وساد شبه الجزيرة العربية حمل الشعراء الذين أسلموا على هجر السباب والموضوعات الهجائية المثقلة بالنزعة البدوية الوثنية،والإبتعاد عن التغني بالمفاخر الجاهلية،وتبني القيم السليبة التي حاربها الإسلام،وظهر تأثر هؤلاء الشعراء المسلمين بالقرآن الكريم ودعوته بعد إيمانهم به»[2].

لقد سطع الإسلام بنوره المشْرقُ وأضاء ظلام الجاهلية بتعاليمه السمحاء وأزال تلك المعتقدات الوثنية الخاطئة، ودحض كثيراً من الطبائع التي لا تناسب المصلحة الإنسانية، فهجر الشعراء موضوعات كثيرة اعتاد عليها الشاعر الجاهلي، كالتغني والتفاخر بالجاهلية، والعصبية القبلية.

1/العصبية القبلية:

[1] المرجع السابق،ص17.

[2] د.علي الشعيبي،الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام،دط،2002م،ص163.

العصبية القبلية حاربها الإسلام،بطرق فتحت المجال واسعا أمام الذين يدخلون في دين الله أفواجا فـــ:«أولا ما يلاحظ في هذا العصر،أن المناقضات الحادة التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج في المدينة،اتجهت في الإسلام وجهة جديدة.فالأحقاد القبلية بين أهل المدينة قد عفا عليها الإسلام،فتحولت إلى مناقضات بين قريش في مكة،والأنصار في المدينة،وقد نشط في ذلك حسان بن ثابت وكعب بن مالك،وكلاهما خزرجي من المدينة.وبرز عبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب،وكلاهما قريشي من مكة»[1].

النزعة القبلية سلوك اعتادت عليه القيم الجاهلية وهي مفهوم سلبي التجأ إليه الشعراء وهي عنصرية باتت راسخة في وجدانهم فظلت تلك الروح العصبية نار متأججة في نفوسهم و«من المعروف أن الشعر الجاهلي في كثرته الغالبة كان قبليا يستوحي في أغراضه وفنونه نزعة العصبية القبلية ويهتدي بهديها،فلما جاء الإسلام أدرك خطر هؤلاء الشعراء على كيان الدولة الناشئة،كان لابد من أن يقف منهم موقف المناهضة وأن ينفّر الناس من الشعر القبلي المثير للضغائن والأحقاد»[2].

إن العصبية القبلية سلوك سلبي أقامته الأعراف الجاهلية،وهو دعوة إلى مناصرة القبيلة،ظالمة أو مظلومة، ذلك هو الشعار الذي ظل يراود أفكار الشاعر الجاهلي،الذي طالما تمسك بتلك القوانين المرسومة له من قبل عشيرته.ولما جاء الإسلام بظلاله وقيمه الرفيعة كان لا بد أن يقف موقفا معارضا، ينبذ تلك الأفكار التي أباحت الرذيلة في نفوس المجتمعات، كيف لا والإسلام دين الأخوة، والتسامح،والعفو والرأي،والشورى،والتعاون على نشر الخير فلما«أشع نور الإسلام،فأبطل كثيرا من هذه العادات،وأرسى مكانها قيما جديدة،فالأخوة حلت محل النزاع،والجهاد بدل الغزو والسلب،وذلك المجتمع المتآلف المتآخي

[1] أ.د.يحي وهيب الجبوري،شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ،ص255.

[2] د.واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،ص110.

الذي لا فرق فيه بين أبيض وأسود ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى،هذا المجتمع حل محل القبيلة،ثم صاغ أسباب الحياة المختلفة،وجعل من التعامل الحر الكريم،ومن التراحم،والعدل...»[1].

إنه المجتمع الإسلامي تنطفئ فيه نار العصبية لتحل محلها قيم التراحم، والتعاطف والمساواة هكذا هي دعوة الدين الإسلامي.

[1] د.محمد بن علي الحضرفي،د.عبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيش،في النص الإسلامي والأموي،(دراسة تحليلية) ،ص08.

المبحث الثاني:أغراض شعر صدر الإسلام.

تنقسم الأغراض في هذا العصر إلى قسمين الأول ينتمي إلى الجذور القديمة (الشعر الجاهلي) وفيه نلمس روح التجديد والتحول والثاني حديث النسب تولد مع الحياة الجديدة.

أولا:الأغراض القديمة:

الجدير بالذكر في هذا الموضوع أن جل الأغراض التي قيلت في هذا العصر بدأت تأخذ منحى مغايراً لما كان سائدا في الشعر الجاهلي.

أ/غرض الفخر:

إنّ هذا الغرض تبدلت فيه كثير من المعاني والألفاظ الجاهلية و« هو من أغراض الشعر العربي قبل الإسلام وبعده،ولكن القيم التي كانت تدفع الشاعر الجاهلي إلى هذا الغرض،تختلف كثيرا عن القيم التي زرعها الإسلام في نفوس المسلمين،لذلك نرى أن الفخر قد اتخذ في الإسلام منحى جديدا يتوافق مع العقيدة الدينية الجديدة»[1].

فالفخر في عصر صدر الإسلام واكب الحياة الجديدة« فقد اصطبغ في صدر الإسلام بصبغة الحماسية الدينية والخروج عن حدود الفردية والقبلية إلى أجواء القومية العربية،وكان حافلا بعزة النصر وحياة الإيمان»[2].

تبدل مفهوم الفخر الذي كان يقوم على تمجيد النزعة الفردية والقبلية إلى غرض يحفل بقيم تسود فيها روح الأخوة القومية والاعتزاز بالنصر الحقيقي والافتخار بالحياة الإيمانية والافتخار بالنبي وصحابته وكان كعب بن مالك من الشعراء الذين نافحوا عن الدين الجديد فهو القائل:

[1] د.واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،ص116.

[2] حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي،(الأدب القديم)ص397.

يذودوننا عن ديننا ونذودُهمْ عن الكفرِ والرحمن راءٍ وسامعُ

هدانا لدِين الحقِّ واختاره لنا والله فوق الصانعين صنائعُ[1].

ب/غرض المدح:

المديح في صدر الإسلام تبدل في مضامينه ذلك أن المديح الجاهلي هو مدح للسادات والزعماء،بينما في هذه المرحلة التاريخية هو تمدح بفضائل وقيم،أو هو تقويم وتعديل لكثير من السلوكات الجاهلية«فمع ظهور الإسلام طرأ تطور على شعر المديح لأن الفضائل التي كان الجاهلي يتغنى بها دخل عليها التعديل من وجهة النظرة الإسلامية،وبما أن القيم الإسلامية جاءت لتحل مكان القيم الجاهلية فقد كانت بحاجة إلى من يعززها ويتغنى بها،فقام الشعراء بهذا الدور يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم ويدافعون عن الإسلام»[2].

وكعب بن مالك الأنصاري يدرج ضمن الشعراء الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم،ومعددا خصاله وأخلاقه:

الحق منطقهُ والعدل سيرته فمن يُحِبْه إليه ينج من تبَبِ[3].

ولم يبق المديح ينظم في هذه الحدود،وإنما تخللته تعديلات،وتقويمات كثيرة، فمع الإسلام ازدادت وتيرة التعديلات وقد«استمر المدح الذي يتغنى بالفضائل الثابتة ودخلته تشعبات متنوعة تمدح الرسول صلى الله

[1] كعب بن مالك،ديوانه،شرح وتح،مجيد طراد، دار صادر،بيروت-لبنان،دط،دت ص12.

[2] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعين(المديح في الشعر العربي)مج02،ص18.

[3] كعب بن مالك الأنصاري،ديوانه ،ص12.

عليه وسلم وقادة الفتوحات،ودخلته معان جديدة كالعدل وإيتاء الزكاة والصلاة والحج والصوم والجهاد والتقوى كدليل لارتباط الشعر عامة بالواقع»[1].

ج/غرض الهجاء:

الإسلام دين كرّه في نفوس المسلمين الهجاء انطلاقا من كونه يمس بالأخلاق ومبدأ الإسلام يحث ويدعو إلى الالتزام بالروح الأخلاقية النبيلة حيث إنّه«...كان أولا في سبيل الدفاع عن الإسلام بهجو مشركي العرب بما لا يخرج عن حدة المروءة،وبما رضيه النبي صلى الله عليه وسلم من حسان شاعره في هجاء قريش وعشيرة النّبي من بني عبد مناف،وكان يتحرج عنه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبي وخلفائه»[2].ولعل القصة المشهورة التي تبين مدى مطابقة الهجاء لهذه التعاليم هي هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر حين قال له:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[3].

إذا كان الهجاء غرض لاذع يجرح مشاعر الناس،فإن شعراء هذا العصر كانوا ينتقون معانيه وألفاظه،بما يتوافق مع رسالة الإسلام،وبما يخرس ألسنة المشركين،فالهدف من هذا الغرض هو الدفاع وحماية أعراض المسلمين لما تدعو إليه الحاجة،وكان صحابة رسول الله يردون على أعداء الإسلام بهجاء فيه نصرة لخير الأنام ونذكر في هذا المضمار حسان بن ثابت حين هجا أبا سفيان قائلا:

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوَّف فغِب هواءُ

بأنّ سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الإماءُ

هجوتَ محمدا فأجبت عنهُ وعند الله في ذاك الجزاء

[1] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعين(المديح في الشعر العربي)مج02،ص18.

[2] الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني،الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ط01،1337هـ/1919م،ص121.

[3] د.إبراهيم السامرائي،في لغة الشعر،دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان-الأردن،دط،دت،ص16.

أَتهْجُوهُ ولستَ له بكُفْءٍ فشَرُّكما لخيرِكما الفداءُ[1].

د/غرض الرثاء:

النظر إلى الموت بعين الإسلام يختلف تماما عن النظرة الجاهلية حيث«إذا كان الرثاء في الجاهلية عبارة عن ذرف للدموع وأسىً في القلوب وحدادٍ على الأموات ووعدِ بالثأر والانتقام أحيانا.فإن الرثاء في الإسلام يختلف في بعض جوانبه،فالشاعر الإسلامي إنسان ملتزم بعقيدة دينية تحدد له أبعاد الرثاء ضمن القيم والمعاني الإسلامية،وقد يتسابق المسلمون إلى الموت والشهادة في مجالات الجهاد فيكون الموت مفخرة من المفاخر التي يعتز بها المسلم»[2].

حدود مرسومة للشاعر لا يمكنه أن يتنصل منها فالرثاء هنا هو احتساب الأجر لله، فالذين رثوا شهداءهم لم يخرج عن المبادئ، والقيم الإسلامية الجديدة.

ب/الأغراض الجديدة:

الغرض الديني:

مع تجدد الفكر دعت الحاجة إلى التجديد والتحديث في الأغراض، التي لم تكن كائنة حيث ظهر الشعر الديني وهو«أبرز الأغراض الجديدة،حيث بدأ الشعراء يتحدثون عن عقائد الدين ومثله العليا،ويدعون إلى التمسك بها والتحلي بما تدعو له،وهو لون جديد لم يكن دين العرب من قبل الإسلام يستوعب أن يتحدثوا عنه بغرض شعري خاص...تحدث الشعراء في هذا الغرض عن وحدانية الله،وعن الوحي

[1] سراج الدين محمد،موسوعة المبدعين،الهجاء في الشعر العربي،ص25.

[2] واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،ص126.

والنبوة،وعن عقيدة الخلق والحياة،وعن الموت والبعث والحساب،وعن الثواب والعقاب،والجنة والنار،والحلال والحرام»[1].

جديد هذا الغرض، معنى ومبنى، فالمفاهيم الإسلامية التي تلخصت فيه، كلها متعلقة بالأحكام الشرعية، وعلى رأسها العقيدة، وحقيقة الحياة، والموت، والجنة، والنار وغيرها، من المسائل الشرعية، وهو ما يؤكد أن الشعر في هذا الزمن كان استجابة لرسالة الإسلام.

فكان ظهور هذا النوع من الأغراض للوعظ، والإرشاد ونشر العقيدة، وهو غرض جديد صاغه الشاعر من تعاليم الدين الإسلامي، لما فيه من شعور بالروح الجديدة، التي تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له لقد كان الشاعر الإسلامي حريصا في الحث على نشر العقيدة الصحيحة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له والحث على التفكر في آيات الله، وفي الكون. كما كان يذكرنا بعاقبة الأمم السابقة، الذين كانوا أعزة ثم أصبحوا بعد ذلك أذلة حينما كفروا بنعمة الله[2].

يقول النابغة الجعدي ناصحا وواعظا الناس لعبادة الله وحده لا شريك له:

الحمد لله لا شريكَ له من لم يقلها فنفسَه ظلما

المولج الليل في النهار وفي الليلِ نهاراً يفرِّجُ الظلما

الخافض الرافع السّماء على الأرض ولم يَبْنِ تحتها دعِما

من نطفةٍ قَدّها مقدِّرها يخلق منها الأبشار والنسما[3].

[1] د.سامي مكي العاني،الشعر والإسلام(عالم المعرفة)،ص:67-68.

[2] ينظر:واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،ص:114-115.

[3] د.حسين الحاج حسن،أدب العرب في صدر الإسلام،ص160.

وأما الحديث عن التحولات التي صاحبت ظهور الدعوة الجديدة، فقد مست جميع الجوانب فتحوّلت الكثير من القيم عن مضامينها الجاهلية، إلى مضامين تحمل دلالات إسلامية نابعة من تعاليم القرآن، وعيون السنة النبوية.

فهي إذن تحولات كثيرة مست الحياة العقلية والفكرية معا، فبدأت تظهر ملامح التجديد والتحديث والتغير في جوانب عديدة في شعر صدر الإسلام، ومن هذه الجوانب الأغراض فقد أصابها بعض التغير وهذا التغيير لم يكن عبثا ولكن له دلالات ومعاني مرتبطة بما جاءت به رسالة الإسلام.

الإسلام دين مبدإٍ ورسالته رسالة سماوية نسخت جملة من الأعراف،والتقاليد الجاهلية البالية،التي لا تنسجم مع القيم الجديدة فكان«محولا مجرى أفكار المؤمنين منهم عن أكثر فنونه وأغراضه المنحرفة عن سنن الشرف والحق:كالتشبيب،والمغازلة،والمدح الباطل،والاستجداء،والهجاء.وبغّض إليهم تلك الفنون المرذولة إزاء القرآن الكريم على الشعر الذي يقال فيها ويقصر عليها...ولم يكف شعراء المسلمين عن قوله فيما يطابق روح القرآن:كالحث على العمل الصالح،والموعظة الحسنة،ومدح الرسول وأنصاره،والانتصاف للإسلام ممن ظلمه واعتدى عليه بهجاء أهله وذمّ نبيِّهم،فقابلوا بهجو كان أشدّ عليهم من وقع السِّهام في غبش الظلام»[1].

تحولات عميقة طرأت الحياة في ظل انتقال البشرية من الدين الوثني إلى الدين الإسلامي إن الإنسان الجاهلي أو الشاعر بصفة أدق كان فطري الطبع يقول ما يحلو له وينظم قصائده وفق أغراض معينة تلبي حاجاته ولما جاء الإسلام تبدلت هذه المضامين في كل المستويات ونحن في النص السابق تتبعنا التحولات التي مست الأغراض وبذلك خرجوا عن نمط الحياة المعتاد.

[1] الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني،الوسيط في الأدب العربي وتاريخه،ص119.

إنّ الشعراء الإسلاميين ساروا وفق اتجاه المنهج الإسلامي وتخلوا عن القيم التي، وجدوا فيها روح المبالغة في كل شيء«وبذلك ابتعدوا عن محاور المديح في العصر الجاهلي والتي كان مجالها الأنا أو القبيلة أو أحد أبنائها أو أصحاب الأموال طمعا بها،إلى ما هنالك من قيم كالفخر في السطو...والقتل والغنائم وغيرها»[1].

[1] د.واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،ص119.

المبحث الثالث:خصائص الشعر في صدر الإسلام.

قبل التطرق إلى خصائص الشعر في صدر الإسلام، لا بدّ من الإشارة إلى قضية مهمة مفادها أنّ:«الأدب في عصر الخلفاء الراشدين،وفي الصدر الأول... -وهو ما نسميه بالعصر الإسلامي-أدب عربي خالص،يجري على ما جرى عليه الأدب العربي القديم،في أسلوبه،وفي أغراضه،وفي صوره،وفي أوزانه،مع بعض التطورات التي اقتضتها طبيعة الظروف.فهو عربي في ديباجته وأسلوبه،إسلامي في موضوعه ومضمونه،وفيما تأثر به من أسلوب القرآن»[1].

انطلاقا من هذا النص يبدو أنّ الشعر في صدر الإسلام من حيث الخصائص الشكلية لم يخرج عن النمط القديم،فقد ظل الشعراء في هذه الفترة متمسكين بالتقاليد العرفية للقصيدة الجاهلية، كيف لا وشعراء هذا الزمن هم شعراء الأمس.

أ/ خصائص القصيد الشعري على مستوى المضمون:

الشعر في صدر الإسلام هو ذلك الشعور بروح سامية، روح تقطع طريق الحق بنواميس عدالة سماوية قوامها تطبيق تعاليم الدين الحنيف، الذي لا تزيغ عنه الأهواء، فكانت هذه الأخيرة تفيء لتحقيق منازل رفيعة هي البحث عن رحلة الفوز في الدارين ذلك أن«الشاعر الإسلامي-فضلا عن معاناته الصادقة-برهانا من ربه (القرآن الكريم) وهديا من نبيه(السنة المطهرة)وحيوات فاضلة تطهر من خلال سلوكها نفسه،ويغترف منها إبداعه،ويأخذ منها زاده في المعاناة المستمرة التي لا تعرف الخمود ولا الخمول ولا الهمود،لأنها تسعى وراء المطلق وتحلق في أفاق الكمال،حتى تلقى الله،وهي ترجو رحمته،وترقب رضاه»[2].

---

[1] د.محمد محمد حسين،الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام،دار النهضة العربية،للطباعة والنشر،بيروت لبنان،دط،1389هـ/1969،ص06.

[2] د.مصطفى محمد الغماري،في النقد والتحقيق(سلسلة من أوهام المحققين)دار مدني ،دط،2003م،ص09.

الشاعر الإسلامي يحلق بعيدا في عالم تسمو فيه معاني الحياة وتتحول فيه الأفكار إلى مضامين رفيعة المنزلة،فالحياة تنصهر في قبس تعاليم الإسلام التي تنير درب السالكين فالقرآن، والسنة النبوية هما البرهان الذي يغرف الشاعر من معانيهما.

كل هذا يقع على مستوى الفكر، في ظل الحياة الإسلامية، التي يأخذ من معينها الشاعر الإسلامي، وإذا أردنا أن نتبيّن أهم المضامين التي توحي بها الأغراض، والموضوعات ،في صدر الإسلام ،فإنّ الشعر في الزمن،هو شعر مضمون بالدرجة الأولى لأنّ الرسالة الإسلامية تقوم على أهداف جوهرية نبيلة، والشعر في هذه الفترة كان مساندا ورافعا للواء شعار رسالة الإسلام.

فالأغراض لا شك أنها تحمل في طياتها مضامين الدعوة الجديدة، ومن أهم الأغراض التي ينجلي فيها روح الدعوة الإسلامية المديح،الهجاء،الرثاء.

مضمون غرض الرثاء:

من المضامين التي نستشفها من غرض الرثاء أنه الغرض الذي يقال من أجل تثمين الدور الأبطال والتحسر على فقدان حملة هذه الرسالة حيث يروى أن كعب بن رواحة بكى حمزة عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا:

بكت عيْنِي وحُقَّ لهَا بُكَاهَا ومَا يُغْنِي البُكاءُ ولا العَوِيْلُ

على أسَدِ الإلهِ غَداةَ قالوا أحمزةَ ذاكُمُ الرّجُلُ القَتِيلُ

أُصِيبَ المسلمون بهِ جميعاً هناك وقد أُصِيبَ بهِ الرّسولُ[1].

[1] د.وهيب طنوس،نصوص مختارة من الأدب الإسلامي والأموي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية،حلب،دط،1412هـ/1992م،ص19.

إذن من المضامين التي التف حولها غرض الرثاء وخاصة في هذه المقطوعة أنّ الشاعر هنا يتحسر على ما حلّ بالأمة، وهو فقدانها لعمود من أعمدة الدعوة إلى الله، وحمزة يمثل أسد الله فإن فقد حمزة أصيب به المسلمون جميعا.

مضمون المديح:

المضامين التي تحملها الأغراض في شعر صدر الإسلام وهي بطبيعة الحال تعكس تلك المعاني السامية التي صنعها الإسلام في القلوب،فتوجهت نحو ما يخدم الدعوة إلى الله ومناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته،ومناصرة المسلمين، وتقويم السلوك وتعديله من الانحرافات، والطبائع المشينة والمخلّة بالحياء «وهكذا نلاحظ في شعر تلك الحقبة من الزمن أن معظم المديح جاء في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم،وأنّ مضامينه هي الفخر برسالة الإسلام التي أوحى الله بها النبي صلى الله عليه وسلم.وبذلك يكون الشعراء المسلمون اتخذوا منحى جديدا في المدح،فبدلا من توزيع الكلام بغير حساب على أصحاب النفوس الضعيفة فقد توجهوا بشعرهم إلى مديح الإسلام المتمثل بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم»[1].

مضمون غرض الهجاء:

الهجاء في صدر الإسلام ليس انتصارا لذات أورد بالمثل،وإنما هو دحض للهجاء الذي يطال شرع الله وحكمه ولم«يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليغضب لنفسه،ولكنه كان يغضب لدين الله،ولهذا حض شعراء المسلمين على رد هذا الهجاء،مع علمنا أنّ الهجاء مذموم في الإسلام،ولكن الإسلام لا يسلب أهله حق الدفاع عن أنفسهم فهجاء المسلمين للمشركين على سبيل الانتصار منهم»[2].

[1] د.واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،ص119.

[2] د.يوسف شحدة الكحلوت،محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي،ص29.

من المضامين الجوهرية التي نجدها في غرض الهجاء أنه لم يكن انتصارا للذوات وإنما هو انتصار حقيقي للمبادئ والقيم الإنسانية،والدفاع عن المظالم التي تطال بها ألسنة المشركين.

العاطفة:

ومن مضامين الشعر أيضا أنّ الشاعر في هذه المرحلة كان صادق العاطفة، فصدق هذه الأخيرة يحمل الكثير من التعاليم الإسلامية القائمة على نبذ الأخلاق الرذيلة وسط المجتمعات، فالإسلام يدعو وينص بصريح آياته على الصدق والابتعاد كل البعد عن الكذب والنفاق وتزييف الحقائق والشاعر هنا كان لا بد عليه أن يسير في ظلال تعاليمه ولذلك«كانت عاطفة الشاعر الإسلامي في أغلب الأحيان صادقة لا تكلف فيها ولا كذب ولا رياء ذلك لأن تعاليم الإسلام تنص على ذلك»[1].

ب/خصائص القصيد الشعري على مستوى الشكل:

يبدو أن الشعر في صدر الإسلام من حيث الخصائص الشكلية لم يخرج عن الشعر الجاهلي وإنما أضاف بعض الخصائص الجديدة ولم يكن رهينا للتقاليد الفنية السابقة بشكل كلي«وإنما طور أيضا في الأسلوب والصياغة فقد تأثرت بروح الإسلام،وبعدت عن الغريب والوحشي حتى يستطيع الناس فهمها وتذوقها واتجه الشعر في صوره وتشبيهاته وأساليبه إلى بعض ما اشتمل عليه القرآن من صور بديعية وأساليب جديدة»[2].

[1] معاذ السرطاوي،دراسات في الأدب العربي،دار المجدلاوي،عمان-الأردن،ط01، 1409 هـ/1977م،ص13.

[2] د.مصطفى عبد الرحمن إبراهيم،في النقد الأدبي عند العرب،ص67.

مع انتقال الإنسان العربي من حياة البداوة المحفوفة بالمتاعب، إلى حياة أخرى أكثر تحضرا في الفكر والمفهوم، فكانت ضرورة حتمية للتغيير في الأسلوب، والصياغة بما يوافق روح الإسلام، واستعان الشعراء بأساليب القرآن وأخذوا منه مادتهم،واستعاروا من صور القرآن ما يخدم شعرهم.

إن الشاعر في صدر الإسلام كان يصطفي ألفاظه، ويسوقها وفق وحي القرآن والسنة فلم تكن«ألفاظ الشعر الإسلامي...معقدة وغريبة كما هو الحال في الشعر الجاهلي ولذلك ابتعدت معاني وألفاظ الشعر الإسلامي من الصعوبة والوعورة والخشونة الجاهلية»[1].

مثّل القرآن الكريم رافدا مهما ،في بلورة المعاني، والألفاظ وفق التعاليم الجديدة، وهذا الأمر ناتج عن ذلك الإعجاب، والانبهار الذي أحدثه الإسلام في النفوس، فطفق الشعراء وراء هذا الصّرخ العظيم فاستمدوا منه مادتهم الشعرية«واستلهموا معاني جديدة لم تكن مطروقة في حياتهم السابقة،استلهموها من آيات الكتاب العزيز،فابتعدوا عن ألفاظ الفحش واستبدلوها بألفاظ تحمل معاني الأخلاق التي وجدوها وتعلموها من آيات القرآن الكريم،فكانوا يدافعون بالألسنة ويقارعون عدّوهم،ويردون على الشعراء بالألسنة مما يسمح به الدين»[2].

ومن حيث الأسلوب ابتعد عن القوة الجاهلية فلم«يكن أسلوب الشعر في هذا العصر بنفس القوة التي كان عليها أسلوب الشعر الجاهلي وذلك لأنّ الشاعر الإسلامي كان عليه أن يختار لفظه ومعناه وفق تعاليم الإسلام بينما هو في الجاهلية يختار ما يحلو له»[3].

[1] معاذ السرطاوي،دراسات في الأدب العربي ،ص13.

[2] يوسف عطار الطريفي،شعراء العرب(عصر صدر الإسلام)،ص06.

[3] معاذ السرطاوي،دراسات في الأدب العربي،ص13.

رقّ الأسلوب واتضحت المعاني في ضوء المعطيات الجديدة التي تدعو إلى الاعتدال، والتوسط في الأمور كلها.

أما بالنسبة للوزن والقافية ووحدة البيت فلم يخرج الشعر في صدر الإسلام عن هذا الإطار، وهذا ما هو واضح في جل القصائد الشعرية التي نظمها قائلوها في هذه الفترة، ولذلك نجد معظم الدراسات التي حاولت الكشف عن هذه الخصائص، لم تتوصل إلى شيء جديد، فهذه الخصائص التي نعثر عليها أثناء مدارستنا لقصائد الشعر الإسلامي نجدها تلتقي مع خصائص القصيدة الشعرية في العصر الجاهلي، ولذلك تشير معظم الدراسات التي تناولت قراءة الشعر في صدر الإسلام أن هذا التحول على مستوى الخصائص الشكلية لم يلمس له أثر إلا في بعض التغيرات الطفيفة فلم« يطرأ على أوزان الشعر العربي حدث غير ما عرف عنه في الجاهلية،وإنما شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها،واستعمالها في جميع أغراض القصيد،حتى في افتتاحها بالنّسيب والتخلص منه إلى المدح والذم ونحو ذلك»[1].

كل ما يمكن قوله أن الخصائص الشكلية لم يطرأ عليها التحول، وإن جاءت بعض الأساليب الجديدة ولكن هذا لا يمنع من أن الشعر في صدر الإسلام لم يخرج عن القوالب الشكلية التي تميز بها في العصر السابق.

الخصائص الجديدة:

في ضوء تعاليم الإسلام الجديدة تجددت الكثير من القيم الفكرية، والعقلية لدى الإنسان العربي وانطلاقا من هذا التصور الجديد الذي يعد كثورة للتغيير على ما هو كائن، فقد ظهرت خصائص جديدة لم يكن لها مثيل في العهد الجاهلي.

[1] الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني،الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ،ص:123،122.

ولذلك نرى أن الشعر في صدر الإسلام، تميّز بخصائص شكلية، البعض منها كان متطابقا مع ما كان عليه في العصر الجاهلي والآخر جديدا جاء بصورة مغايرة تماما لما كان عليه العهد الجاهلي، ومن هذه الخصائص نجد أساليب القسم والدعاء وأساليب القصص القرآني ظاهرة في أشعار الشعراء وهي أساليب جديدة.

-أسلوب القسم:

اغترف الشعراء من القرآن الكريم والسنة النبوية ما يخدم القصيدة الشعرية فكان أسلوب القسم خاصية مستمدة من الينابيع القرآنية إذ يرى الباحث أنّ شعراء صدر الإسلام كان و لابد أن يتأثروا بالقرآن الكريم في المظهر والجوهر معا فقد استعانوا بألوان القسم الجديد الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية[1].

أسلوب القسم جديد في المظهر والجوهر وهو مستمد من منبع القرآن والسنة النبوية من جهة ثانية والأمثلة في هذا الشأن متعددة وواضحة في شعر صدر الإسلام.

-أسلوب الدعاء:

الدعاء يعد من الأساليب ذات العناصر الإسلامية الجديدة،فالشعراء الإسلاميون كانوا متأثرين بالدين الجديد،وقد أدهشهم القرآن بإعجازه،وبيانه وروعة أسلوبه، وكان الدعاء في هذا الاتجاه يبتغي فيه الشاعر مرضاة الله وتوحيده والثناء عليه[2].

وهذا ما نلمسه في بدء بعض الشعراء قصائدهم بالحمد والثناء.

[1] ينظر:د.سامي مكي العاني،سلسلة عالم المعرفة ،ص174.

[2] ينظر:المرجع نفسه،ص177.

-أسلوب القصص:كان الجاهلي يستمد خصائص الشعر من مجالسته ومحاكاته للطبيعة المحيطة به ولما انتشرت روح الإسلام وجد القصص القرآني خير منبع ينسج على منواله تراكيبه الفنية«ووجد الشعراء في قصص الأنبياء التي سردها القرآن الكريم كنزا يستمدون منه تشبيهاتهم ويلتمسون فيه الصور التي يرسمونها»[1].

كل ما يمكن أن نتطرق إليه في هذا الاتجاه أن الشعر في صدر الإسلام جرى على الطريقة الجاهلية، من حيث الخصائص،إلا في بعض التغيرات الطفيفة، ببساطة هي أن شعراء هذا العصر هم شعراء عاشوا في الفترة الجاهلية، وسبكوا فيها قصائدهم فكان شعرهم من حيث الخصائص هو نفسه في العصر هذا باستثناء هذه الخصائص.

الإسلام رؤية جديدة للحياة والشاعر هنا يتصارع بين متناقضين زمانا، ودينا وبيئة، والشعر في هذه المرحلة قد نهل من المنهلين أخذ من الأعراف الجاهلية التي لا تتجافى مع تعاليم الإسلام، وأخذ من القرآن الكريم«ولهذا كله فإنّ الشعر الذي وصل إلينا منذ صدر الإسلام امتزج قسم منه بالطابع الإسلامي والقسم الآخر بقي متأثرا بطابع الجاهلية،وأما ما تأثر بالإسلام فقد قل فيه المديح بما في هذا الغرض من مبالغات،كما قلّ فيه الهجاء بما فيه من إفحاش،وكثر في هذا الشعر الرثاء لشهداء المسلمين والدعوة إلى الإسلام والدخول فيه والوعظ والإرشاد والحكم والحث على مكارم الأخلاق والتمسك بشعائر الدين الحنيف،أي أنّ هذا الشعر كان يستمد بعض نظريات القرآن وأحكامه،فكثيرا ما كان الشاعر يستعمل ألفاظ القرآن الكريم وآياته ومعانيه.فالمعنى الإسلامي في هذه الفترة بدأ يتضح وأصبحت الشخصية الإسلامية في الشعر تتميز عن شخصية الشاعر الجاهلي إذ حلّ محل الحث على الغزو والفخر بالقتل والمعارك وقوة العدو وكسب الغنائم حلّ محلها الدعوة إلى الشهادة في سبيل الله والانتصار للمسلمين

[1] المرجع السابق،ص181.

وجنودهم فأصبحت لغة الشعر لينة وسهلة،وتركت خشونة الكلام الجاهلي والتراكيب الصعبة،فعمل هذا كله فعلا على نشر الدعوة الإسلامية وإخضاع المشركين المتمردين للدين الإسلامي»[1].

يعد هذا النص خلاصة جامعة مانعة لكل ما ورد في الفصل على المستويات الثلاثة الموضوعات، والأغراض، والخصائص. إذن فصاحب النص قد جمع لنا عصارة الشعر في صدر الإسلام ،وبيّن أنّ الشعر في هذه الفترة لم يكن بمعزل عن المؤثرات الجاهلية، وإنما نجد شذرات واضحة في هذا الشعر تحمل سمات العصر الجاهلي،إلا أنّ الإسلام أضفى لمسات تتماشى مع المنطلق الجديد،فقد تبدلت بعض الأغراض وحلت محلها أغراض أخرى، وخمدت نيران العصبية، وحلت محلها الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله والانتصار للمسلمين.

[1] د.راضي نواصره،أثر فتح مكة في أدب صدر الإسلام،ص:358-359.

الفصل الثالث

توطئة:

إن فكرة الثابت والمتحول ماثلة في كل شيء؛ فكل شيء في نظام هذا الكون يخضع لمقياس الثبات والتحول معا،والفكرة ليست قاصرة على ضرب محدد، وإنما هي في سائر الأشياء، فإذا تأملنا الطبيعة جيدا تبدو لنا في ظاهرها أشياء ذات أصل ثابت لا يتحرك مهما صار الحال، وآخر يتحول من طبيعته مع تغير العوامل،ففي فصول السنة مثلا لنرى ذلك ظاهرٌ ففصل الربيع يتغير وجه الأرض، ففيه تزهو الطبيعة بشتى الألوان، وفي بقية الفصول يحدث التغير،ورغم هذا التغير الواضح إلا أن هناك ثوابت تبقى في الفصول فالزمن مثلا يبقى هو الزمن ينجلي الصبح بنوره المشرق ثم يحل الظلام فيأتي الليل الحالك هي الحياة هكذا بين ثبات وتحول.

هذا العنوان يحيلنا إلى الكثير من المسائل، أو الفلسفات الحياتية، التي نشاهدها ونعيشها، يوما بعد يوم فحياة الإنسان تحمل معها جملة من المتغيرات والثوابت هذا عن المظاهر الخارجية التي تتراءى لنا بوضوح من خلال ما يحيط بنا من المظاهر التي نشاهدها في الواقع، وموضوع الدراسة في هذا الإطار هو الثابت والمتحول في معايير القصيدة الشعرية بين العصرين(العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام)، وننطلق من حقيقة هي أن الحياة الجاهلية تختلف في الكثير من خصوصياتها عن الحياة في صدر الإسلام باعتبار الدين الإسلامي له حدود وضوابط مقدسة لا يمكن التعالي عليها، وهو صفحة جديدة غيّرت مجرى الحياة الفكرية والعقلية. وقد نتساءل هنا فنقول:كيف يمكن للفكر الإنساني أن يخضع لهذا التحول؟فهل الشعر مثلا تتغير ملامحه بتغير منهج الحياة؟ وفي ثوب هذا التساؤل لا بد من الإشارة إلى أنّ الثابت والمتحول الذي نحن بصدد دراسته نابع من كون الحياة البشرية في هذين العصرين تختلف في الكثير من الخصوصيات والمعتقدات

الدينية بالخصوص، وإذا كانت الحياة بدأت تأخذ منحى جديدا فهل الشعر في هذين العصرين تبدلت فيه بعض الملامح؟ وهل ظل الشعر يحمل في هذه الفترة بعض الخصوصيات الجاهلية؟.

المبحث الأول:تحديد الثابت والمتحول على مستوى الموضوعات.

يعد "حسان بن ثابت" من الروافد التي يمكن أن نعول عليها في دراسة الشعر الإسلامي،(شعر صدر الإسلام)،باعتباره شاعراً مخضرماً عاصر الفترتين الجاهلية وصدر الإسلام فـ«كان ...شديد العصبية لقومه،فلا يكاد يتعرض لهم أحد بسوء حتى ينبري للدفاع عنهم بشعره فيشيد بمناقبهم ويهجو أعداءهم.تفسّر لنا غلبة الهجاء والفخر على شعره الجاهلي.وكان حسان يشارك في الحياة الأدبية في عصره،وكان على صلة بالشعراء الذين يفدون على عكاظ في المواسم،ومنهم النابغة والأعشى والخنساء-واتصل بالغساسنة ملوك جلّق يمدحهم بشعر جيّدٍ ويتقاسم،هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل وغيرهم من شعراء البلاط أعطيات بني غسّان،وقد طابت لحسان الحياة في ظل تلك النعمة؛إذ أنّ الغساسنة أكرموه وأغدقوا عليه العطايا وجعلوا له مرتبا سنويا...وحينما يمدح حسان بن ثابت الغساسنة،فإنه لا يسلك سلوك الشعراء الغرباء عنهم يمدحونهم ليأخذوا عطاء هم فحسب،ولكنه يمدحهم ليفتخر بهم لأنهم أخواله...»[1].

"حسان بن ثابت" تميز شعره في هذه الفترة بالنزعة القبلية التي كانت ماثلة في هذا المجتمع،فكان بالأمس وفيا للذود عن عشيرته وقبيلته مدافعا عنها بكل ما يملك فهو الزعيم الذي يتصدى لمهاجمة الخصوم ،وهو القائل فيهم:

ربَّ خالٍ لي لو أَبْصرته سبط المشية في اليوم الخصر[2].

وقد قال في أيام جاهليته مادحا جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوك الغساسنة كما ذُكِر في الأخبار:

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزّمان الأولِ

[1] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،ط02،ص11.

[2] المصدر نفسه،ص11.

يمشون في الحل المضاعفِ نسجها مشي الجمالِ إلى الجمال لبزّل

الخالطون فقيرهم بغنيّهم والمشْفقون على الضَّعيفِ المُرَمِلِ

أولاد جفنة حول قبر أبيهمُ قبر ابن ماريةَ الكرِيمِ المُفضِّلِ[1].

هذا شعر "حسان بن ثابت" في الجاهلية قد امتاز بالروح القبلية التي تدعو إليها الأعراف السادة آنذاك، فكان شاعر الأنصار في الجاهلية، ولما دخل الإيمان قلبه أصبح شاعر الإسلام، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، فتحول من شاعر يمدح الملوك، ويناصر القبيلة، إلى شاعر يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته«وقد وقف مدحه في الإسلام على رسول الله،وقصر هجاءه على المشركين،وقد اكتسب شعره في الإسلام كثيرا من العذوبة والتعابير الإسلامية والاقتباس من القرآن الكريم»[2].

فقد شكلت الأحداث الكبرى التي توالت عقب ظهور الرسالة الإسلامية مسارا هاما في اعتناق الدين الجديد،ومن هذا التاريخ « هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب واتخاذها مقرا لبث دعوته،عرفت منذ ذلك الحين بمدينة الرسول،وتطلّعت إليها أنضار العرب،وهفت إليها قلوب المسلمين.ولم يكن للمدينة أن تحتل المنزلة التي وصلت إليها بعد هجرة النّبي إليها لو لم تبادر قبيلتا الأوس والخزرج إلى اعتناق الدين الجديد وإلى إيواء حامل الرسالة الذي حقق المؤاخاة بين المهاجرين وأهل المدينة،ولم يعد يفرق بين القبلتين فيها تفريقا قبليا وإنما أسماهم جميعا اسما واحدا...»[3].

لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان حدثا عظيما في تاريخ البشرية فيه تحققت معاني الإنسانية، وتجسدت على أرض الواقع فالمؤاخاة بين المهاجرين، والأنصار خير مثال على توطيد

[1] يوسف عطا الطريفي،شعراء العرب عصر صدر الإسلام،ص160.

[2] المرجع نفسه،ص159.

[3] حسان بن ثابت،ديوانه،ط2، ص12.

العلاقات الحسنة بين الناس، وكان هذا الأمر مستمد من تعاليم القرآن الكريم وهو ما يتجلى في قوله تعالى:﴿**واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ علَيْكُمُ إذْ كُنتُمُ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فأصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخْواناً وكنتُم على شَفَا حُفْرةٍ مِّنَ النّارِ فأنْقَذَكُم مِنْها كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ ءايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾. سورة آل عمران:الآية 103،برواية ورش لقراءة الإمام نافع من طريق أبي يعقوب الأزرق، ج04.الدار العامية للنشر والتجليد،ط02.ص63

الإسلام دين يُدينُ بأن النّاس في صف واحد لا فرق بين أبيض ولا أسود إلا بالتّقوى،فالإسلام ينصّ بصريح آياته إلى الأخوة والتأليف بين القلوب ونبذ الشحناء بين النّاس.

فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم في مسيرة رسالته أن يجمع الأمة في كفة واحدة وتحت راية واحدة هي الإسلام، وفي هذا الوقت بذات«كانت نيران الحروب بين القبلتين قد خمدت في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعد الشعراء يجدون موضوعا آخر ينظمون فيه ويعبرون عن ذواتهم من خلاله كما كانوا يفعلون في الجاهلية،غير أنّ قريشا سرعان ما خلقت لهم الموضوع الجديد وذلك عندما أخذ شعراؤها في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين...نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والرد على أنصار القديم،وقد نشبت بين الفرقين معارك لسانية حامية،فكان الشعر شعر نضال يُهجي فيه الأعداء ويمدح فيه رجال الفريق،ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء،بل للدفاع عن سلطتين دينيتين وعن حكمين مختلفين»[1].

[1] المصدر السابق،ص12.

وفي هذه الحقبة أيضا«أصبح حسان شاعر الرسول وأصبح شعره سجلا لجميع الأحداث التي توالت على المسلمين وأصبحت لحسان منزلة خاصة في نفوس المسلمين لدفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم وذبّه عن الإسلام وأحيط شعره بهالة من الإعجاب والتقدير»[1].

واقتصر مدحه في هذا العهد الجديد على وصف النّبي، وخلفائه الذين ساندوه، وعزّروه،وناصروه وهو القائل:

نَبِيٌّ أتَانا بعد يأْسٍ وفتْرَةٍ منَ الرُّسُلِ والأَوثَانُ في الأرضِ تُعْبَدُ

فأمْسى سراجاً مُسْتَنِيرا وهَادِيا يَلوحُ كما لاَحَ الصّقيل المهنّد

أنْذَرنا ناراً وبشّر جَنّةً وعلمنا الإسلام فالله نحمد

وأنت إله الخلقِ ربي وخَالقي بذلك ما عمَّرتُ في النّاسِ أشهِدُ[2].

"حسان بن ثابت" شاعر مخضرم شهد الفترتين، الجاهلية وصدر الإسلام ،فكان شاعرا الأنصار في الجاهلية، وشاعر الرسول في الإسلام، وفي هذه الدراسة نحاول تسليط الضوء على نموذج من قصائد الشاعر لنبين مواطن التغير والتحول الذي أحدثه الفكر الإسلامي على شعره، وفي رحلة البحث عن وجه الثابت والمتحول في معايير القصيدة الشعرية حاولت الكشف عن نموذج من مقتطفاته التي مثّلت تجربة شعرية رائدة كتبها في فترتين تاريخيتين كانت فيهما الخصائص والمعتقدات تتباين.

همزية حسان بن ثابت:

[1] المصدر السابق،ص13.

[2] المصدر نفسه،ص14.

عفت ذات الأصابع[1] فالجواء إلى عذراء[2] منزلها خلاءُ

ديار من بني الحسحاس[3] قفر تُعَفِيها الرّوامِسُ والسّماءُ

وكانت لا يزال بها أنِيس خلال مروجها نَعَمٌ وشاءُ

فدع هذا ولكن من لَطَيْفٍ يؤرِّقُنِي إذا ذهب العشاءُ

لشعثا[4] التي قد تَيّمتْهُ فليس لقلبه منها شفاءُ

كأنَّ سبيئةَ من بيت رأسٍ يكون مزاجُها عسَلٌ مساءُ

على أنيابها أو طعم غض من التفّاح هصَّرهُ الجِناءُ[5]

إذا ما الأشرباتُ[6] ذُكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطيبِ الرّاح الفِداءُ

نوليها الملامة إن ألمنا إذا ما كان مغثٌّ أو لِحاءُ

ونشْربُها فَتَتْرُكُنا ملوكا وأسْداً ما ينهنهنا[7] اللّقاءُ

عدِمْنا خيْلَنا إنْ لمْ تروْها تُثِيرُ النَّقْعَ موعِدُها كَداءُ

يبارين الأعِنَّة مُصْعِداتٍ على أكتافها الأسَلُ الظماءُ

تَظَلُ جِيادُنا متمطِّراتٍ[8] تلطِّمهُنّ بالخمُرِ النّساءُ

---

[1] موضع بالشام.ينظر المصدر السابق.ص18.

[2] العذراء تعني البكر والجمع عذارى.ينظر:الشيخ أحمد رضا،معجم متن اللغة(موسوعة لغوية حديثة)،مج04، دار مكتبة الحياة،بيروت لبنان،1379هـ/1960م،ص55.وورد شرحها على أنها قرية بغوطة بدمشق معروفة وإليها ينسب مرج عذراء.ينظر:شرح ديوان حسان بن ثابت،ص8.

[3] بني الحسحاس:قوم من العرب وربما سمّو الرجل الجواد حسحاسا.ينظر:ديوان حسان بن ثابت،ط2،شرح عبد أ.مهنّا ص18

[4] شعثاء: اسم امرأة من خزاعة وتيّمته أي ذللته.شرح ديوان حسان بن ثابت،ص10.

[5] هصّره الجناء:أماله والجناء هو الجني،وهو كل ثمر يجتنى لإدراكه.ديوان حسان بن ثابت،شرح عبد أ.مهنّا،ص18.

[6] الأشربات:جمع أشربة وهي جمع شراب.المصدر نفسه ،ص12.

[7] نهنهه:بمعنى كفّ عن الشيء وزجره بالفعل.ينظر:المصدر نفسه،ص18.

[8] متمطرات:نقول تمطرت الخيل إذا ذهبت مسرعة.ينظر المصدر نفسه،ص19.

فإما تُعْرِضوا عنا اعْتَمَرْنا وكان الفَتْحُ وانكشفَ الغطاءُ

وإلا فاصبروا لجلاّدِ[1] يوم يُعِزُّ اللهُ فيه من يشاءُ

وجبريل رسولُ الله فِينا وروح القدسِ ليسَ له كفاءُ

وقال اللهُ قد أرْسلتُ عبداً يقولُ الحقَّ إنْ وقَعَ البلاءُ

شهدت به فقوموا صدّقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاءُ

وقال الله قد سيَّرتُ جُنْدا هم الأنصار عرْضتها اللقاءُ

لنا في كل يوم من معدٍّ[2] سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ

فَنُحْكِمُ بالقوافي من هجانا ونضرِبُ حين تَخْتَلِطُ الدماءُ

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مُجوَّفٌ نَخِبٌ[3] هواءُ

بأنّ سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتُها الإماءُ

هجوتَ محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولستَ لهُ بِكُفءٍ أمين الله لخيركما الفداء

هجوت مباركا برا خنيفا أمين الله شيمته الوفاءُ

فمن يهجو رسولَ اللهِ منكم ويمدحه وينصُرُه سواءُ

فإنّ أبي ووالده وعِرْضي لِعرض محمدٍ منكم وقاء

فأما تثقفن بنو لؤي جذيمة إن قتلهم شفاءُ

---

[1] الجلاّد والمجالدة:المبالطة والتضارب بالسيوف.المصدر السابق، شرح عبد أ.مهنّا،ص19

[2] معد:المقصود بها قريش.ينظر:المصدر نفسه،ص20.

[3] من النّخب بمعنى النزع يقال رجل نخب أي جبان لا فؤاد له.شرح ديوان حسان بن ثابت،ص15

أولئك معشر نُصِروا علينا ففي أظفارنا منهم دماءُ

وحلف الحارث بن أبي ضرار وحلف قريظة[1] منا براءُ

لساني صارم لا عيبَ فيه وبحري لا تكدِّره الدلاء[2].

تكشف كثير من الدراسات التي تناولت همزية "حسان بن ثابت" بالتحليل، والمناقشة أن هذه القصيدة مخضرمة جزء منها كُتب في الجاهلية، والجزء الآخر كتب في صدر الإسلام، وللتفصيل في هذه النقطة سوف نأتي على ذكرها في متن الفصل.

1/الثوابت التي نستخرجها من ثنايا هذه المقطوعة.

في مدح الرسول وهجاء أبي سفيان يقول حسان بن ثابت:

*موضوع وصف الطلل:

عَفَتْ ذاتُ الأصابِعِ فالْجِواءُ إلى عذراءَ منزلها خلاءُ

ديار من بني الحَسْحاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيها الرّوامِسُ والسّماءُ.

وكانت لا يزالُ بِها أنيسٌ خِلاَلَ مُروُجِهَا نعَمٌ وشاءُ

فدَعْ هذا ولكن من لِطَيْفٍ يؤرّقُني إذا ذَهَبَ العِشاءُ[3].

إن الشاعر هنا سلك مسلك الجاهلين،فاستهل هذه المقطوعة بمطلع طلل كعادة الشعراء السابقين.غير أن ما يمكن أن نتساءل حوله هل وقوف الشاعر على الأطلال في هذا العصر هو حنين

[1] قريظة:هم بنو قريظة إخوة النضير وهما حيّان من اليهود الذين كانوا بالمدينة وقد نقض بنو قريظة العهد وساعدوا المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم.حسان بن ثابت،ديوانه،ط2،شرح عبد أ.مهنّا،ص21.

[2] راضي نواصره،أثر فتح مكة في أدب صدر الإسلام،ص:283-284.

[3] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه، ص:17-18.

لماضيه، أم أن موضوع الأطلال لا يمكن للشاعر أن يتنصل منه، في أي عصر من العصور ومهما تغير وجه الحياة؟

ولمعرفة ذلك نستعين بتحليلات، ودراسات النقاد الذين عكفوا على شرح هذه القصيدة، حيث:« تبدو الأطلال عند حسان رمزا لتلك الحقبة التي مضت قبل الإسلام،والتي قد تكون النفس قد تعلقت بها في فترة من الزمن،لكننا لا نشعر عند حسان بحب لهذا الطلل،ولا نشعر عنده بأي نوع من التعاطف،فالأطلال تقترن بالجاهلية والغواية،وبحياة جاهلية لا مكان فيها للأمن والسلام والتعاطف،بل الغلبة للأقوى»[1].

ويفسر "شوقي ضيف" الموقف الذي نهجه "حسان بن ثابت" في استهلاله القصيدة بمقدمة غزلية طللية، بالاعتماد على دراسة السابقين قائلا:إنّ ابتداء الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية، مشببا،ومستطردا ومتبوعا ذلك بذكر الخمر على الطريقة الجاهلية، هو ما جعل القدامى يحيلون هذه القصيدة على أنها لم تكن وليدة عصر صدر الإسلام،وإنما هي مجزأة إلى جزأين: الأول كُتِب (نظم)في العصر الجاهلي والجزء الثاني كُتِب في صدر الإسلام[2].

لِشَعْثاءَ التي قد تيَّمَتْهُ فليس لقَلْبِهِ منْها شفاءُ

كأنَّ سبيبةً من بيتِ رأسٍ يكون مزاجُها عسَلٌ وماءُ

على أنيابِها أو طعْمَ غَضٍّ من التفّاحِ هصّرهُ الجناءُ

إذا ما الأشرباتُ ذكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطيِّبِ الرّاحِ الفِداءُ

[1] د.محمد بن علي الحضرفي،د.عبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيش،في النص الإسلامي والأموي (دراسة تحليلية)،ص49.

[2] ينظر:د.شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)،ص82.

نُوَلِيها الملامةَ إن ألمنا إذا ما كان مغْثٌ أو لحاءُ[1].

***موضوع وصف المرأة:**

من المواضيع التي بقيت ثابتة،ونلمحها من هذه المقطوعة الإسلامية،وصف المرأة وهو ما يظهر عند الشاعر في توظيفه لاسم شعثاء حيث تعتبر«شعثاء صورة أخرى للجاهلية بما فيها من فوضى،وبما فيها من ملذات ومغريات،ونحن لا نشك أن تلك الحياة الجاهلية قد كابدها المخضرمون من الشعراء،وهم حين تجاوزوها لم يبق منها عندهم سوى صورة لحياة مضت،قد يذكرونها بما فيها من مفارقات،وما يقترن بها من لهو وخمر وغير ذلك»[2].

يقف حسان وفقة الجاهليين في إتباعه منهج بدأه بذكر الأطلال ثم انطلق واصفا صورة المرأة التي شغف بها قلبه في الجاهلية حيث يقول عنها:

لِشَعْثاءَ التي قد تيَّمَتْهُ فليس لقَلْبِهِ منْها شفاءُ[3].

كيف نفسر وضعية الشاعر في نهجه طريق الجاهليين، أليس من الأجدر أن يتخلى الشاعر في هذا الأوان عن عادات الأوائل، ما دام أنه خلع مئزر الدين الوثني؟ أم أن شعثاء هي عرف جرت عليه العادة وبالتالي الشاعر مهما تغيّرت حياته يبقى وفيا لكثير من القيم، والعادات الجاهلية،حتى وهو محسوب في قاموس الإسلام؟

ونشرَبُها فتَتْرُكُنا ملوكاً وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ

عدِمْنا خيلَنا إنْ لمْ تروْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ موْعِدُنا كداءُ

[1] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،ط2،ص18

[2] د.محمد بن علي الحضرفي،وعبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيشي،في النص الإسلامي والأموي دراسة تحليلية،ص49.

[3] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،ط2،ص18.

يُبارينَ الأعِنَةَ مصْعِداتٍ على أكْتافِها الأسَلُ الظّماءُ

تظلُّ جِيادُنا متَمطّراتٍ تلَطّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ

فإما تُعْرضوا عنَّا اعتمَرنا وكان الفتْحُ وانكَشَفَ الغِطاءُ

وإلا فاصبروا لجلادِ يومٍ يُعزُّ الله فيه من يشاءُ[1].

***وصف الخمرة**:شاع هذا الموضوع في العصر الجاهلي،عند معظم الشعراء فتناولوها في شعرهم، ووصفوها وتفننوا في القول فيها و"حسان بن ثابت"من بين الشعراء الذين تجرأوا في وصفها وفي هذه المقطوعة أيضا نجد حضورا قويا في وصفها حيث يقول:

ونشرَبُها فتَتْرُكُنا ملوكاً وأُسُداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ[2].

فهل وصف الخمرة في هذه الفترة أمر اضطراري، أم أنه منهج لا يمكن التخلي عنه؟ أو أن البيت ولد قبل الإسلام،بمعنى أنه قاله الشاعر في أيام جاهليته، فما محل القول يا ترى؟ ولمثل هذه الوقفات يجدر بنا أن نحيل الأمر إلى ما صرّح به "حسان بن ثابت"حيث يُروى أنه هاجم فتية وجدهم يشربون الخمر فأنكر عليهم ذلك الصنيع،فقالوا له "ما أخذنا هذا إلا منك" في قولك:

ونشرَبُها فتَتْرُكُنا ملوكاً وأُسُداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ.

فقال لهم "حسان بن ثابت":هذا شيء فعلته أو قلته في عهد الجاهلية فو الله ما شربتها قط منذ دخلت إلى الإسلام[3].

[1] المصدر السابق،ص19

[2] المصدر نفسه،ص19.

[3] ينظر:د.وهيب طنوس،نصوص مختارة من الأدب الإسلامي والأموي، ص45.

أهم ما يميز الجزء الأول من هذه المقطوعة الشعرية، أن روح الجاهلية مازالت تتملك قلب الشاعر، فقد ظل وفيا للعديد من الموضوعات الجاهلية، التي سار على دربها الشعراء السابقين، أمثال: امرؤ القيس وزهير بن أبي سلمى، وعمرو بن كلثوم وغيرهم.ولكن تبدو لنا الجزئية الثانية من القصيدة وهي تبدأ من قول الشاعر"عدمن خيلنا...إلى قوله:وبحري لا تكدره الدلاء". تحمل نفسا مغايرا في الموضوعات، والمضامين فالتحول واقع في هذه الجزئية، وهو يتجلى من خلال دعوة الشاعر إلى التحلي بروح الشجاعة، والإقدام ومناصرة "الرسول صلى الله عليه وسلم"،وهجاء من يهجوه فقد حمل الشاعر راية الإسلام، وبدأ يحارب كل من سولت له نفسه أن يحارب الإسلام فقطع دابر المشركين بلسانه لا بسيفه.

2/ المتغيرات التي نستخرجها من ثنايا هذه المقطوعة الشعرية:

***الدعوة إلى محاربة المشركين:**

محل القصيد في هذه الأبيات،أن الشاعر يتحول من المشاهد الجاهلية القائمة على وصف الأطلال ووصف الخمرة، ووصف المرأة، إلى موضوع جديدٍ لم يكن في يوم من الأيام تطرق إليه بنفسه، فانبرى مدافعا عن الدعوة الإسلامية، وهو يهدد قريش ويتوعدهم بالنصر، والفتح، إيمانا منه بأن النصر للمؤمنين وهي قاعدة شرعية استمدها من تعاليم القرآن الكريم.

عدِمنا خيْلنا إن لم تروها تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كداءُ

يبارين الأعنّةَ مُصْعِداتٍ على أكنافها الأسَلُ الظماءُ

فإما تعرضوا عنَّا اعْتَمَرْنا وكان الفَتْحُ وانكشفَ الغِطاءُ

وإلاَّ فاصْبِروا لجلاد يومٍ يُعزُّ اللهُ فيهِ منْ يشاءُ[1].

يحاول الشاعر في هذه الأبيات التخلص من ماضيه الكئيب، الذي يحمل له صورا جاهلية، لا يريد رؤيتها اليوم إنها«انتقالة تشبه الإفاقة من حلم كئيب يحاول فيه صاحبه أن يبعد عن مخيلته صورا لم يعد يحبها،ولا يريد لها أن تعود إلى ذاكرته،صورا عفت الجاهلية شعثاء تيمت أصحابها وأذلتهم وأو صلتهم وأخلفتهم الموعد الكاذب،فأفاقوا منها بعد سكرة فقدوا فيها الرشد،وتصوروا فيها أنفسهم الملوك والفرسان المحاربين الأشداء،فإذا بالوهم أكذب ما يكون،حتى جاءهم البشير النذير بالمحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[2].

يجدر بنا القول أن "حسان بن ثابت"بدأ يقطع الصلة بينه وبين حياة مضت،وجرفت معها صور أثارت فيه ذكريات. تذكره بماض يحمل الكثير من المغالطات، والأكاذيب، وهذه الانتقالة دليل على صحوة حقيقية في وقوف الشاعر إلى جنب الدعوة، وهو ما يؤكده بقوله "عدمنا خيلنا"فهو يدعو على الخيل إن لم تتقدم وتثير الغبار في المعركة،والدعاء على الخيل هو دعاء ضمني على الفرسان الذين سوف يركبونها،ويتقدموا في الصفوف الأمامية، ويعلن راية الجهاد، إذن الشاعر يفتح في هذه الأبيات الشعرية أبواب الجهاد ويدعو الفرسان إلى اقتحام المعركة بدلا من التقاعس[3].

***الدعوة الناس للتصديق بما جاء به "محمد صلى الله عليه وسلم".**

وإذا كان الشعر في صدر الإسلام هو دعوة الناس إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان برسوله فقد تجسد هذا المعنى في قول حسان:

---

[1] د.عادل جابر صالح محمد،د.شفيق محمد الرقب،تاريخ الأدب العربي القديم،ص38.

[2] د.محمد بن علي الحضرفي،وعبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيشي،في النص الإسلامي والأموي دراسة تحليلية،ص50.

[3] ينظر: المرجع نفسه،ص51.

شَهِدتُ به، فقوموا صدِّقوهُ فقلتم:لا نقوم ولا نَشَاءُ[1].

دعوة الشاعر هنا هي مناصرة الرسول والتصديق بما جاء به من رسالة سماوية منزهة عن كل خطأ لأن من يحملها معصوم من الخطأ.

***الدفاع عن "الرسول صلى الله عليه وسلم"**وهجاء المشركين(أبو سفيان).

حيث يقول:

هجوت محمدا،فأجبت عنه، وعند الله في ذاك الجزاءُ

أتهجوهُ،ولستَ لَهُ بكفءٍ، فشَرُّكُما لخيرِكما الفِداءُ

هجوتَ مباركاً،براً،حنيفاً، أمين الله،شيمته الوفاءُ

فمن يهجو رسولَ الله منكم، ويمدحه،وينصرهُ سواءُ[2].

همة عالية تدفع "حسان بن ثابت" إلى الرد على كل من تسوّل له نفسه هجاء "النبي صلى الله عليه وسلم"،فيقف لهم معاتبا،ومحذرا لهم بلسانه لا بسيفه، ويرى في هذا الشأن أن من يهجو "محمد صلى الله عليه وسلم"،أو يمدحه سواء فهذه قاعدة سليمة لأن من يتجرأ لهجاء "محمد صلى الله عليه وسلم" لن ينفعه شيء.

إن هذه الأبيات تشير في معظمها عن رؤية جديدة انطلق منها "حسان بن ثابت" مدافعا وغيورا عن رسالة الدين الجديد.

وتضمنت هذه القصيدة حالة أخرى وهي حديث الشاعر عن فتح مكة وهو ظاهر في قول الشاعر:

[1] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،ط2،ص09.

[2] المصدر نفسه،ص09.

فإما تعرضوا عنَّا اعْتَمَرْنا وكان الفَتْحُ وانكشفَ الغِطاءُ

وإلاَّ فاصْبِروا لجلاد يومٍ يُعزُّ اللهُ فيهِ منْ يشاءُ[1].

[1] د.عادل جابر صالح محمد،د.شفيق محمد الرقب،تاريخ الأدب العربي القديم،ص38.

المبحث الثاني:تحديد الثابت والمتحول على مستوى الأغراض.

حوت هذه القصيدة الشعرية على ثلاثة أغراض رئيسة هي:المدح والهجاء والفخر.

حسان بن ثابت شاعر مخضر يعد من فحول الشعراء لمتانة شعره، وقوة ذكائه فكان في الجاهلية شاعر يمدح ملوك الغساسنة فقد«نشأ شاعرًا يتكسب بالشعر وينتقل بين بلاط جلّق"دمشق"وبلاط الحيرة،وكان إلى الغساسنة أميل وقد مدح أولاد الحارث الأعرج من آل جفنة الغساسنة وأحفاده من بعده،واستمر الغساسنة في وصل حسان بالجوائز حتى بعد أن دخل في الإسلام وانتهى من مدحهم»[1].

وهو القائل في مدحهم:

يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السّواد المقبل

يسقون من وَرَدَ البريص عليهم بردى يصفّقُ بالرّحيق السلْسَل

بِيضُ الوجوه كريمة أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول[2].

لما كانت الحياة جوفاء، تبحث وراء الماديات،سولت لشّاعر نفسه،إلا أن يظفر ببلاط الملوك، طمعا منه في جمع المال، والتكسب فكان هذا الصنيع يبتغي منه رضى الملوك، والقبائل فهذا عهد لا يعرف فيه حسان تعاليم الإسلام، وسؤالنا هو هل مدح حسان بن ثابت في الجاهلية هو نفسه في صدر الإسلام؟

لم يبق المدح عند "حسان بن ثابت"بنفس الموضوع الذي كان مطروقا في الجاهلية، وإنما انتقل الشاعر من مدح قائم على التكسب،والطمع إلى مدح فيه رؤية حياتية جديدة؛مبنية على صدق العاطفة كيف لا وهو يمدح خير البشرية محمد صلى الله عليه وسلم،معددا خصاله الشريفة وهو ظاهر في قوله:

[1] د.حسين الحاج الحسن،أدب العرب(في صدر الإسلام)ص145.

[2] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،ط2،ص11.

وجبريل رسولُ اللهِ فِينا وروحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفاءُ

وقال الله قَدْ أرْسَلْتُ عبْداً يقولُ الحقَّ إنْ نفَعَ البلاءُ[1].

وفي همزيته راح يمدح خير البشرية محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذا المدح تتحول المعاني التي كانت عنده مرهونة بالعطاء والتكسب إلى مدح يرجو به الرضى والعفاف حيث تمخضت معاني وألفاظ هذا المدح من منبع القرآن فهو المعين الذي نهل منه الشاعر مادة مدحه وفخره وهجائه.

غرض الفخر كان حسان في الجاهلية يفخر بقومه وبالفروسية حيث يقول في قصيدته الميمية:

لنا حاضر فعمٌ وبادٍ كأنَّه شماريخ رضوى عزةٍ وتكرُّما

متى ما تزنا من معدٍّ بعصبة وغسّان نمنعُ حوضنا أن يهدَّما

بكل فتى عارى الأشاجعِ لاحَهُ قراعُ الكماةِ يَرْشحُ المسكَ والدَّما

إذا استدبرتنا الشمس درّت متوننا كأنَّ عُرُوقَ الجَوْفِ يَنْضِحْنَ عِنْدما

ولَدْنا بَنِي العَنْقاءِ وابْنَيْ مُحَرِّقٍ فأَكْرِمْ بِنا خالاً وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَما[2].

يندفع الشاعر بين الكلمات،والعبارات المفحمة ليصف قومه،ويفتخر بمناقبهم«فهم كرام في الحضر والبداوة ويمثل عظمتهم بشماريخ رضوى.والتمثيل يتردد في متن القصيدة القديمة.وكانت المادة المحدقة بالعربي تبقي في نفسه حالا من الانفعال أو تترسب في قاع ضميره بحالة نفسية مبرمة اليقين،وجبل رضوى كان يدع في خلده معاناة السمو والبعد العالي الذي لا يطال ونوعا من الشموخ والاستيلاء.تلك حالة فعلية وليست

[1] المصدر السابق،ص20.

[2] المصدر نفسه،ص07.

افتراضا وهي صادرة عن الفطرة والبداهة والمعطيات الأولى لواقع النفس...فحسان يفخر بالنعيم والفروسية في آن معا وقد أثر لفظة الأشاجع على الأصابع لأنها الأدل على البطولة وممارسة الصعاب...»[1].

الفخر هنا مفعم بما تحققه قبيلة الشاعر من القوة والبطولة،وبما تتميز به من صفات الكرم لدلالة على التفوق فهو يتباهى بمناقب القبيلة التي يمثل عظمتها بعظمة جبل الرضوى.

والفخر في قصيدته الهمزية فهو قائم على تعداد صفات تعظيم للرسول صلى عليه وسلم وللرسالة وللمسلمين ومدى ما يحققونه من بطولة في وجه المشركين حيث يقول:

عدِمنا خيْلنا إن لم تروها تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كداءُ

يبارين الأعنّةَ مُصْعِداتٍ على أكنافها الأسَلُ الظماءُ

فإما تعرضوا عنَّا اعْتَمَرْنا وكان الفَتْحُ وانكشفَ الغِطاءُ

وإلاَّ فاصْبِروا لجلاد يومٍ يُعزُّ اللهُ فيهِ منْ يشاءُ[2].

هو فخر ببطولة المسلمين وبمدى قوتهم في مواجهة الأعداء وفخر بنشوة النصر وتأييد الله جل جلاله للمؤمنين بالنصر القادم فتتحول الوجهة في الفخر إلى بث في نفوس المسلمين شعور بالتفوق وفي المقابل محاولة ضرب المشركين بسهام الخيبة والركود حيال ما يملكه المسلم من قوة لا تهز رياح الفشل بل يرى حسان أن النفس المؤمنة تدفع صاحبها إلى خوض غمار المعركة وتخطي كل العراقيل التي تقف مانعا فالمسلم في هذا الوقت ينطلق كالسيل لا تحده المثالب لأنه مزود بكلام سماوي لا يأتيه الباطل.

[1] إيليا الحاوي،في النقد والأدب،(مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي والأموي)، ص:198-199.

[2] د.عادل جابر صالح محمد،د.شفيق محمد الرقب،تاريخ الأدب العربي القديم ،ص38.

المبحث الثالث:تحديد الثابت والمتحول على مستوى الخصائص.

أ/ خصائص المضمون:

إذا كان الشاعر اعتمد في مقطوعته الوقفة الطللية عند الافتتاح فإن هذا الافتتاح لم يأت بصورة الوقفة الطللية الجاهلية فالمقام هنا استدعى أن«يعبر عن وقوف على أطلال حياة مضت،فالجاهلية قد عفت،وعفت معها حقبة من حياة الشاعر،الأطلال هنا ليست رمزا لديار تركها الشاعر،فالشاعر هنا مدني يعيش في يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم،والشاعر الحضري يقف على الأطلال رمزا،وحسان هنا يقف على أطلال تلك الجاهلية التي نقضها الإسلام،وبهذا لا نشعر بحنين من الشاعر لتلك الأطلال،ولا نشعربحزن عميق»[1].

نظرة الشاعر للأطلال هنا ليست هي النظرة نفسها التي اعتاد عليها في الحقبة الجاهلية حيث كانت نظرته في الجاهلية للأطلال ترمز إلى المحبوبة والأهل أما هنا فقد تبدلت رؤيته لأنه«قد انتقل من مرحلة إلى مرحلة،ومن حياة الجاهلية بكل ما يتعلق بها من لهو وانطلاق وإحساس بالتناهي والفناء،وخوف من الموت و الدثور إلى حياة الإسلام وما فيها من وضوح الرؤية وإيمان بالله الخالق وبالبعث والحياة الأخرى»[2].

ارتبط وقوف الشاعر هنا بموقف فيه إحساس وشعور بالفناء وقد توضحت له الرؤية،فكل شيء في هذه الدنيا يتلاشى، ويندثر ولا يبقى في هذا الوجود إلا بقايا وأثار تذكر الإنسان بماضيه.

ومن المميزات التي نلمس أيضا في هذه القصيدة أنها متعدد الموضوعات.ومتعددة الأغراض.وكذلك نجد فيها وحدة البيت.

[1] د.محمد بن علي الحضرفي،د.عبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيش،في النص الإسلامي والأموي(دراسة تحليلية)،ص48.
[2] المرجع نفسه،ص48.

ب/**خصائص الشكل:**

من أبرز الخصائص الشكلية التي تنطوي عليها المقطوعة الشعرية(همزية حسان بن ثابت) هي أنّ الشاعر استهلها بمطلع طلل سلك فيه طريق السابقين ولعله سلك مسلك الشاعر لبيد بن ربيعة العامرية في مطلع معلقته التي بدأها بقوله:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمنًى تأبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُها[1].

وجود تشابه بين المقطعين الأول لشاعر جاهلي والثاني لشاعر إسلامي "فحسان بن ثابت" فقد حاكى الشعراء السابقين ليفتتح قصيدته بمشهد جاهلي كان مشاعا بين الشعراء الكبار وهي ظلت راسخة في أذهان الشعراء حيث يقف حسان بن ثابت محملا بثقافته الشاعرية التي عهدها من قبل ومن هنا يمكن أن نقول أن المقدمة الطللية كخاصية بقيت عند الشعراء حيث يقول:

عَفَتْ ذاتُ الأصابِعِ فالْجِواءُ إلى عذراءَ منزلها خلاءُ[2].

الألفاظ الموظفة في همزية "حسان بن ثابت"ترددت ألفاظ عديدة تحمل دلالة الروح الجاهلية المسيطرة على نفسية الشاعر ولعل هذا ما يبرر الرأي القائل أن هذه القصيدة نصفها كُتِب في الجاهلية ونصفها الآخر كُتِب في صدر الإسلام حيث وردت ألفاظ عديدة اكتسبت ثوب الجاهلية ولكن هذا لا يعني من عدم وجود ألفاظ تحمل في ثناياه المعاني الإسلامية فقد حُفَّت القصيدة بمعان إسلامية جمة مذكورة وظاهرة للعيان.

الألفاظ الجاهلية هي:

[1] الإمام الخطيب أبو زكريا يحي بن علي التبريزي،شرح القصائد العشر،إدارة الطباعة المنيرية،ط02، 1352هـ،ص129.

[2] حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،ص17.

عفت،شعثاء،الجواء والأصابع،متمطرات،تثير النقع،بني الحسحاس،الروامس،الأسل.

الألفاظ الإسلامية:

جبريل عليه السلام،أمين الله فينا، الجزاء، اعتمرنا.

الإسلام دين الرحمة والرقة والعفو و هو دين التسامح وهو يدعو إلى تقويم الطبائع والابتعاد عن الغلظة ؛فالإسلام دين المعاملة والنصيحة قبل كل شيء،هذه المعاني النبيلة التي نتمسك بها في حياتنا اليومية فلا بد أن تنجلي أيضا في فكرنا وهو ما يمكن أن نفسر أن اعتماد "حسان بن ثابت" البحر الوافر في هذا الوقت بذات كونه«ألين البحور يشد إذا شددته ويرق إذا رققته،وأكثر ما يجود به النظم في الفخر»[1].

استخدام الشاعر البحر الوافر جاء مناسبا، وملائما لطبيعة الشعر الإسلامي، الذي يمتاز بالليونة والرقة وكذلك تلاءم مع الأغراض التي وردت في قصيدته(الهمزية)،فالبحر هنا خدم الموضوع فالوافر من البحور الجادة فقد اعتمد عليه الشعراء في كثير من الموضوعات،و هنا الشاعر وظفه ليؤدي مضمون الرسالة الجديدة فهو«كثير الطواعية يشتد إذا شددته،فيصلح لموضوعات الحماسية،والفخر،والمدح،والهجاء،وما إليها،ويرق إذا رقّقته،فيصلح لموضوعات الغزل،والرثاء،والوجدانيات وما إليها،ولذلك نراه كثير الشيوع في الشعر العربي قديمه وحديثه»[2].

وافق البحر الوافر تطلعات الشاعر الجديدة المفعمة بروح إيمانية جهادية وحماسية فالموقف حماسي جدا وتطلب أن يكون البحر الوافر الذي يحمل نفس الحماسة على غرار البحور الأخرى.

[1] د.عبد العزيز شرف،د.محمد عبد المنعم خفاجي،النغم الشعري عند العرب،دار المريخ،الرياض،ط07، 1987م،ص16.

[2] د.إميل بديع يعقوب،المعجم المفصل في (علم العروض والقافية وفنون الشعر)،دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،ط01، 1411هـ/1991م،ص162.

الخاتمة

إنّ رحلة البحث في واحات الشعر الجاهلي، وواحة الشعر في صدر الإسلام، هي رحلة طويلة المسافة وبعيدة التاريخ، والبحث في فيافيهما، تطلب مني جهدا كبيرا وتطلب مني أيضا الوقوف على التراث العربي القديم، ذلك أنه يمثل نقطة مهمة للوصول إلى خبايا هذا البحث،المنوط بدراسة القصيدة العربية من خلال الوقوف عند هذين العصرين اللذين كانا الشعر فيهما يمثل رؤية خاصة للحياة الفكرية والعقلية.

ومنه فإن مسار البحث في القصيدة الشعرية العربية، بين العصرين الجاهلي وعصر صدر الإسلام، هو الوقوف عند نقاط الاختلاف ونقاط الائتلاف بينهما، أو هو الوصول للمعرفة الحقيقية لطبيعة الشعر العربي، وإدراك أهم الأبعاد التي تنطوي عليها القصيدة واستجلاء مواطن التشابه بين القصيدة في العصر الجاهلي، وبين القصيدة في عصر صدر الإسلام،وانطلاقا من الدراسة التي أجريناها وفق عنوان محدد الفكرة ألا وهو الثابت والمتحول في معايير القصيد الشعري بين العصر الجاهلي،وعصر صدر الإسلام.

وفي هذا البحث سلطنا الضوء على الموضوعات، والأغراض، والخصائص الفنية لمعرفة وجه التحول و وجه الثبات من جهة أخرى، وقد أسفرت هذه الدراسة عن مجموعة من النقاط التي يتميز بها الشعر الجاهلي عن الشعر في صدر الإسلام انطلاقا من هذه الوجوه التي بينت ورسمت لنا دلالات الشعر في هذين العصرين ونجملها في هذه النقاط.

-إنّ وجوه الشعر في العصر الجاهلي تختلف بشكل واضح عن وجوه الشعر في صدر الإسلام وهذا يعود لطبيعة الحياة العقلية السائدة في هذا العصر؛فالعصر الجاهلي كان الشعر فيه يأتي عن السليقة والفطرة و كانت القيم السائد آنذاك تختلف تماما عن القيم الإسلامية؛ فالشاعر في هذا العصر يقول ما يحلو له ولا

تحده ضوابط ،وقد انبرى الشعراء وذاع صيتهم في قرض الشعر، كيف لا والإنسان العربي لا يملك من وسائل البيان سوى الشعر.

– القصيدة في عصر صدر الإسلام تعج بالمعاني الإسلامية،التي استنبطها الشعراء من ينابيع القرآن،وعيون السنة النبوية.

–الموضوعات التي لمسناها في هذا الصدد معظمها يصب في حقل واحد ألا وهو الدعوة إلى إعلان كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى،فالشعر في هذه المرحلة كان يأخذ من معين واحد هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل، ولا تشوبه الأكاذيب، ويخدم منحى الدعوة الجديدة.

–مع مجيء الإسلام تبدلت الحياة بشكل عام، في المظهر، والجوهر ونحن في عرض هذا البحث سلطنا الضوء على الشعر باعتباره يمثل ديوان الأمة فقد وجدنا ملامح الشعر بدأت تتغير في الشكل، والمضمون، ولكن هذا لا يمنع من أن بعض الموضوعات والأغراض لا زالت تحمل خصوصية العصر الجاهلي، وهذا مما يدل على أنّ الإسلام لم يحرم الشعر جملة وتفصيلا، وإنما رعى في ذلك الجوانب التي تتعارض مع الإسلام.

– ونقطة أخرى أنّ ما نلاحظه في مشوار هذا البحث أنّ الموضوعات، والأغراض تغيرت بصورة معتبرة بينما الخصائص لم تتغير إلا في بعض النقاط التي تتعلق بالمضامين.

–وفي هذا البحث أيضا أن بعض الشعراء الإسلاميين لا يزالون أوفياء لمعظم التقاليد الفنية، التي تتميز بها القصيدة العربية كالوقوف على الأطلال مثلا،وتوظيف الكثير من الألفاظ التي تحمل الخصوصية الجاهلية،وبعض المعاني الجاهلية بنبرتها.

-والنقطة المحورية في هذا البحث والتي نعني بها دراسة الثابت والمتحول في معايير القصيد الشعري بين العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام،والتي تم التركيز عليها في الفصل الثالث في هذا البحث (الفصل التطبيقي) ومن خلال الدراسة النموذجية لهمزية "حسان بن ثابت"حددنا جملة من النقاط التي تبين أنّ الشاعر في هذه الفترة تحول فكريا وعقليا.

و أهم النقاط التي لمسناها في هذه المقطوعة الشعرية هي:

-وجـــود سمـــات العصـــر الجاهلي،وسمـــات عصـــر صـــدر الإســـلام ،علـــى المســـتويات التالية:الموضوعات،الأغراض،والخصائص الفنية.

- وقد لا حظنا في هذه المقطوعة الشعرية وقوف الشاعر على الأطلال، كعادة الجاهلين، متبوعا بذلك بوصف المرأة(شعثاء) ثم تبع ذلك بوصف الخمرة. وأما الموضوعات التي تحمل روح الدعوة فهي ظاهرة في قول الشاعر عدمنا خيلنا،وحديثه عن فتح مكة...

قائمة المصادر

والمراجع

*القرآن الكريم*برواية ورش لقراءة الإمام نافع من طريق أبي يعقوب الأزرق،ج04،ط2.

1. ابن رشيق القيرواني،العمدة في محاسن الشعر وآدابه،(د.ط)،(د.ت).

2. ابن سلام الجمحي،طبقات فحول الشعراء،(دط.دت)

3. ابن قتيبة،الشعر والشعراء،تح أحمد محمد شاكر،ج01،دار المعارف-القاهرة،(دط.دت)

4. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري،ذخائر العرب،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات،تح وتعليق، عبد السلام محمد هارون،دار المعاف،كورنيش النيل القاهرة-مصر،ط04 ،1400ه/1980م.

5. الأعشى الكبير ميمون بن قيس،ديوان الأعشى،شرح وتقديم،مهدي محمد ناصر الدين،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،ط02، 1413ه/1993م.

6. الإمام الخطيب أبو زكريا يحي بن علي التبريزي،شرح القصائد العشر،إدارة الطباعة المنيرية،ط02، 1352ه.

7. امرؤالقيس،ديوانه،اعتناءوشرح،عبدالرحمنالمصطفاوي،دارالمعرفة،بيروت-لبنان،ط2 ،1425ه/2004م

8. حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،دط،وزارة الثقافة،الجزائر العاصمة،2007.

9. حسان بن ثابت الأنصاري،ديوانه،شرح وتقديم الهوامش:أ.عبد.أمهنّا،دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،ط02، 1414ه/1994م.

10. حسان بن ثابت،شرح ديوانه،مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر،(د.ط)،(د.ت).

11. حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب العربي،(الأدب القديم)دار الجيل،بيروت-لبنان،دط،دت

12. عبد الرحمن بن خلدون،مقدمة ابن خلدون،تح أحمد جاد مراجعة أ.د.عبد الباري محمد الطاهر،دار الغد الجديد القاهرة-المنصورة،ط01، 2007م.

13. عمر بن أبي ربيعة،ديوان،شرح وتقديم،عبد أ.علي مهنا،دار الكتب العلمية-بيروت لبنان،دط.دت.

14. القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني،المعلقات السبع،تقديم عبد الرحمن المصطفاوي،دار المعرفة-بيروت لبنان،ط02،1425هـ/2004م.

15. القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني،الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح،محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي،المكتبة العصرية صيدا-بيروت،ط01 ، 1427 هـ،2006م.

16. كعب بن مالك،ديوانه،شرح وتح،مجيد طراد، دار صادر،بيروت-لبنان،دط،دت.

17. محمد أحمد بن طباطبا العلوي،عيار الشعر،شرح وتح،عباس عبد الستار،مراجعة،نعيم زرزور،منشورات، محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،ط1426،02هـ/2005م.

18. مصطفى صادق الرافعي،تاريخ آداب العرب،ج2،دار الكتاب ،بيروت-لبنان،ط5 ،1420هـ/1999م

19. مصطفى صادق الرافعي،ديوان الرافعي،شرح محمد كامل الرافعي،ج01،مطبعة الإسكندرية، 1321

20. مصطفى صادق الرافعي،ديوان الرافعي،شرح محمد كامل الرافعي،ج02 ،جامعة الاسكندرية،1322هـ.

قـــائمة المراجع:

1. إبراهيم السامرائي،في لغة الشعر،دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان-الأردن،دط،دت
2. إحسان عباس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب،(نقد الشعر)من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري،دار الثقافة بيروت لبنان،ط01، 1391هـ/1971م.
3. إحسان عباس،فن الشعر،الجامعية الأمريكية دار صادر بيروت،دار الشروق عمان-الأردن،ط01، 1996م.
4. أحمد محمد الحوفي،الحياة العربية في الشعر الجاهلي،مكتبة النهضة المصرية،ط02،دت،
5. أدونيس،الشعرية العربية ،دار الآداب،بيروت لبنان،ط01، ،1984
6. أدونيس،ديوان الشعر العربي،دار المدى للثقافة والنشر،سوريا-دمشق،مج01، دط، 1996 ،
7. إميل بديع يعقوب،المعجم المفصل في (علم العروض والقافية وفنون الشعر)،دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،ط1411،01هـ/1991م.
8. إيليا الحاوي،في النقد و الأدب(مقدمات جمالية عامة وقصائد محللة من العصر الجاهلي)،ج01،دار الكتاب اللبناني-بيروت،ط1986.05
9. إيليا الحاوي،في النقد والأدب،(مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي والأموي)،ج02،دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط04، 1979م.
10. إيليا الحاوي،نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، ،دار الكتاب اللبناني بيروت، ط03 ،1969م.

11. باديس يوسف فوغالي،الزمان والمكان في الشعر الجاهلي،عالم الكتب الحديث،إربد-الأردن،جدارا للكتاب العالمي لأردن،ط01 ،1429هـ/2008م

12. جرجي زيدان،تاريخ آداب اللغة العربية،ج01،منشئ الهلال ،دت

13. جيمز مونرو،النظم الشفوي في الشعر الجاهلي،تر،د.فضل بن عمار العماري،دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام،المملكة العربية السعودية-الرياض-ط01 1407هـ/1987م،ص15.

14. حسني عبد الجليل يوسف،الأدب الجاهلي قضايا،وفنون،ونصوص،مؤسسة المختار ،القاهرة،ط01، 1421 هـ/2001م.

15. حسين الحاج حسن،أدب العرب في صدر الإسلام،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط01، 1412هـ/1992م

16. حسين الحاج حسن،أدب العرب في صدر الإسلام،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت-لبنان،ط01، 1412هـ/1992م

17. داود غطاشة،وحسين راضي،قضايا النقد العربي قديمها وحديثها،مكتبة دار الثقافة،عمان-الأردن،ط02، 1991م

18. راضي نواصره،أثر فتح مكة في أدب صدر الإسلام،دار اليازوري،عمان –الأردن،ط01، 2011م

19. زبير دراقي،المفيد الغالي في الأدب الجاهلي،ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية-بن عكنون-الجزائر،1994

20. سامي مكي الغاني،الإسلام والشعر(عالم المعرفة)، دط،الكويت،1996م

21. السيد محمود شكري الألوسي البغدادي،بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،ج01،شرح وضبط،محمد بهجة الأثري،دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، دط،دت.

22. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)،ج02،دار المعارف،نيل–القاهرة، ط11،دت

23. شوقي ضيف،سلسلة تاريخ الأدب العربي،العصر الجاهلي،ج01،دار المعارف، ط24، 2003م.

24. شوقي ضيف،فنون الأدب العربي(الفن التعليمي)النقد،دار المعارف،ط05،

25. الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني،الوسيط في الأدب العربي وتاريخه،ط01، 1337ه/1919م.

26. صباح نوري المرزوك،الأدب الإسلامي ، دار الصفاء–عمان،ط01، 1435 ه/2014م

27. طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع هجري،المكتبة الفيصلية،مكة المكرمة،1425ه/2004م،ص:21–22.

28. عادل جابر صالح محمد،د.شفيق محمد الرقب،تاريخ الأدب العربي القديم،دار الصفاء للنشر والتوزيع،عمان–الأردن،ط01، 1431ه/2010م

29. عبد العزيز شرف،د.محمد عبد المنعم خفاجي،النغم الشعري عند العرب،دار المريخ،الرياض،ط07، 1987م.

30. عثمان موافي،في نظرية الأدب (من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم)،ج01،دار المعرفة الجامعية،دط،2000م،

31. عروة عمر،الشعر الجاهلي(حياة العرب الأدبية)دار مداني وزارة الثقافة،دط،2008

32. عصام قصبجي،أصول النقد العربي القديم،منشورات جامعة حلب،دط،1411ه/1991م.

33. علي الشعيبي،الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام،دط،2002م

34. عمر فرّوخ،تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)،ج01،دار العلم للملايين ،ط04، 1981

35. غازي طليمات،وأ.عرفات الأشقر،تاريخ الأدب العربي،الأدب الجاهلي قضاياه،أغراضه،أعلامه،فنونه،دار الإرشاد حمص،ط01، 1412هـ/1992

36. محمد الرابع الحسني النّدوي،الأدب الإسلامي وصلته بالحياة،مؤسسة الرسالة،ط01، 1415هـ/1985م

37. محمد بن علي الحضرمي،ود.عبد الرزاق حسين،د.نبيل المحيشي،في النص الإسلامي والأموي(دراسة تحليلية)مؤسسة المختار القاهرة،دار المعالم الثقافية المملكة العربية السعودية،ط01، 1419هـ/1998

38. محمد محمد حسين،الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام،دار النهضة العربية،للطباعة والنشر،بيروت لبنان،دط،1389هـ/1969م.

39. مصطفى عبد الرحمن إبراهيم،في النقد الأدبي القديم عند العرب،كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين،مصر-القاهرة،مكة للطباعة،دط،1419هـ/1998م،ص:51-54.

40. مصطفى محمد الغماري،في النقد والتحقيق(سلسلة من أوهام المحققين)دار مدني ،دط،2003م،

41. معاذ السرطاوي،دراسات في الأدب العربي،دار المجدلاوي،عمان-الأردن،ط01، 1409 هـ/1977م.

42. نبيل راغب،النقد الفني،مكتبة مصر-دار مصر للطباعة سعيد جودة،دط،دت.

43. نجوى محمود حسين صابر،النقد الأدبي حتى نهاية القرن الثالث الهجري،دار المعرفة الجامعية-الإسكندرية،القاهرة،دط،2000م.

44. واضح الصمد،أدب صدر الإسلام،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت لبنان،ط01، 1414 ه/1994م.

45. وهيب طنوس،نصوص مختارة من الأدب الإسلامي والأموي،مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية،حلب،دط،1412ه/1992م.

46. يحي وهيب الجبوري،شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،عمان-الأردن،ط01، 2014م/2015م

47. يوسف خليف،الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي،دار المعارف مكتبة الدراسات الأدبية،كورنيش النيل-القاهرة،ط03، 1919م

48. يوسف شحدة الكحلوت،محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي،ج01،دط،1430ه/2009م

49. يوسف عطا الطريفي،شعراء العرب(عصر صدر الإسلام)،دار الأهلية لنشر والتوزيع،عمان-الأردن،ط02، 2009م

50. يوسف عليمات،النسق الثقافي(قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم) عالم الكتب الحديث الجامعة الهاشمية،اربد،ط01، 1430ه/2009م

المعاجم والموسوعات:

51. سراج الدين محمد،موسوعة المبدعين،(المديح في الشعر العربي)مج02،دار الراتب الجامعية،بيروت-لبنان

52. سراج الدين محمد،موسوعة المبدعين،(الهيجاء في الشعر العربي)،مج03،دار الراتب الجامعية،بيروت-لبنان

53. الشيخ أحمد رضا،معجم متن اللغة موسوعة لغوية حديثة،مج 04، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان،1379هـ/1960م.

54. ندى عبد الرحمن يوسف الشايع،معجم لغة دواوين شعراء المعلقات العشر(تأصيلا ودلالة وصرفا)مكتبة لبنان ناشرون،بيروت لبنان،ط01 ،1993م.

الفهرس

فهرس المحتويات:

البسملـــــــة.

إهـــــــــــداء.

الشـــــكر والتقدير.

مقـــــدمة.....(**أ–و**)

مـــــدخل.....(**11–29**)

الفصل الأول:القصيد الجاهلي:موضوعاته،وأغراضه،وخصائصه الفنية.....(**30–68**)

المبحث الأول:موضوعات الشعر الجاهلي.....(33-45)

المبحث الثاني:أغراض الشعر الجاهلي.....(46-52)

المبحث الثالث:الخصائص الفنية في القصيدة الجاهلية.....(53-68)

الفصل الثاني:القصيد الشعري في صدر الإسلام:موضوعاته،وأغراضه،وخصائصه الفنية...(**69–103**)

المبحث الأول:موضوعات الشعر في صدر الإسلام.....(72-87)

المبحث الثاني:أغراض الشعر في صدر الإسلام.....(88-94)

المبحث الثالث:الخصائص الفنية في شعر صدر الإسلام.....(95-103)

الفصل الثالث:تجليات الثابت والمتحول في معايير القصيد الشعري بين العصرين الجاهلي وصدر الإسلام–قراءة في همزية حسان بن ثابت.....(**104–126**)

المبحث الأول:تحديد الثابت والمتحول على مستوى الموضوعات.....(107-119)

المبحث الثاني:تحديد الثابت والمتحول على مستوى الأغراض.....(120-122)

المبحث الثالث:تحديد الثابت والمتحول على مستوى الخصائص الفنية.....(123-126)

خـــــــاتمة.....(**128-130**)

قائمة المصادر والمراجع.....(**132-140**)

فهـــــرس المحتويات.....(**142-143**)